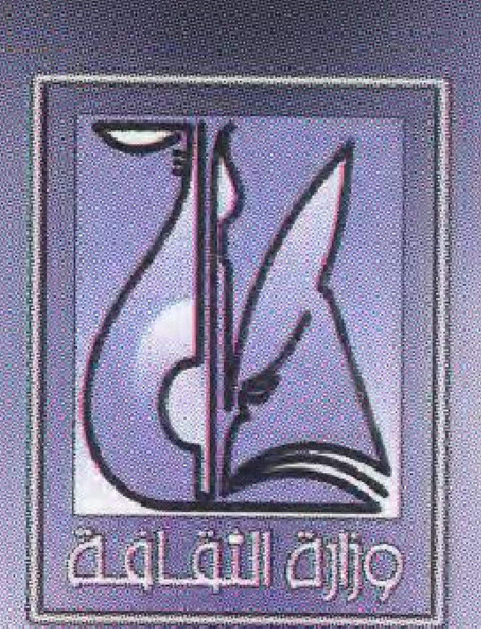
آلان

أفكار ١

دراسات

ترجمة

سلمان حرفوش



197
.S14
C.3

دراسات

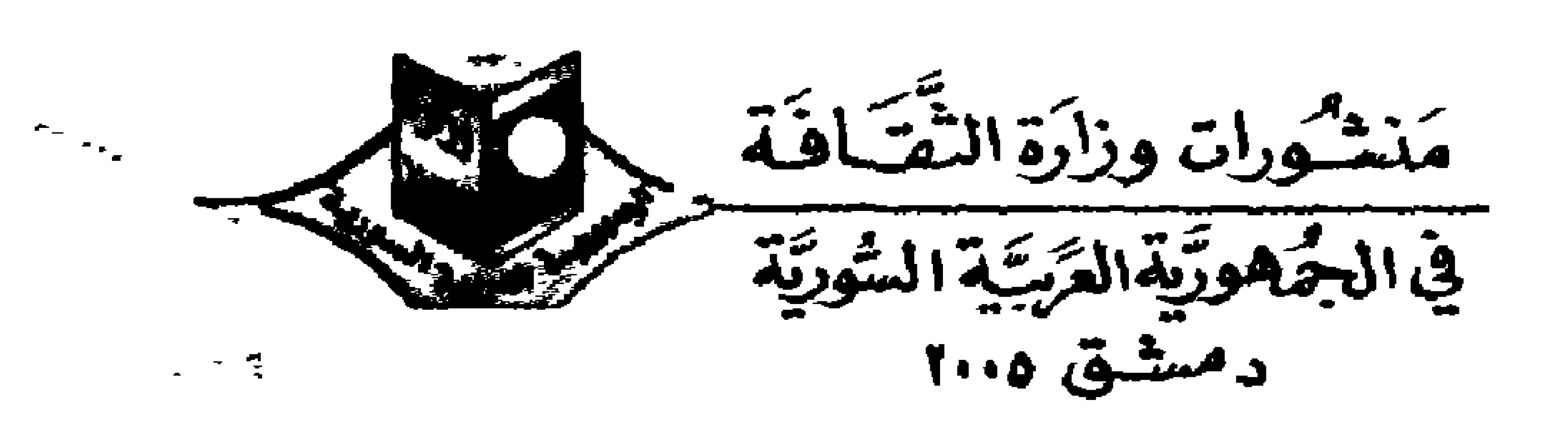
إهـــــــداء٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

آلان

دراسات

ترجمة

سلمان حرفوش



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٥

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية:

Études

PRÉSENTÉES
PAR SAMUEL S. DE SACY

دراســـات = Études / آلان ؛ ترجمة سلمان حرفوش .- دمشق :
وزارة الثقافة ، ٢٠٠٥ .- ١٥٦ ص ؛ ٢٤ سم .-
(أفكار ؛ ١)

١- ١٩٤ آ ل ا د ٢- ٨٤٤ آ ل ا د ٣- العنوان
٤- آلان ٥- حرفوش ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

أفكــار
«١»

مدخل

في عام ١٩٦٨ جرى الاحتفال بالذكرى المئوية لولادة آلان . وتعلمون مقدار الاهتمام الذي كان يوليه لحفلات التكريم : فمن بعد أوغست كونت Auguste Comte الذي كان يصنّفه من بين " نصف الدزينة " من المعلمين الذين تأثّر بهم ، لم يكن يرى في تلك الاحتفالات ، بحق وحقيق ، إلا مناسبة طقوسية تتواجه فيها الإنسانية مع أفضل ما لديها . ومن حسن حظنا اليوم أننا نستطيع أن نضيف إلى تآليفه كتاباً جديداً : فأي تكريم لذكراه المئوية أسمى وأرفع ؟

يضم كتابنا هذا للمرّة الأولى تسعة وثلاثين نصاً كانت عملياً غير معروفة ، وهي في معظمها غير منشورة أو متداولة في المكتبات . إنها تحقّق فيما بينها ما هو أكثر بكثير من مجرّد تقاربات مرهفة . هي تشبه " الخواطر " التي وضعها آلان ، علماً أنها لا يمكن الخلط بينها وبين " الخواطر " . وما هي محض مسوّدات بسيطة ، ولا كتابات مهملة مرفوضة ، كما أنها بالتأكيد ليست ممّا يطلقون عليه : خبايا الأدراج (كان هو نفسه قد عهد بقسم كبير منها إلى بعض المجلات ، ولم يكن التساهل مع النفس ، تحديداً ، من طبعه) ؛ لقد كانت ، على العكس ، تحمل تفوق كاتبها الفذّ بامتياز .

فكيف السبيل إلى تفسير هذا التأخير الاستثنائي ؟ لعل الجواب يأتينا مما أسرّ به " تاريخ أفكاري " (١٩٣٦)[1] : " متعتي هي الكتابة ، وأن أرى مخطوطي وقد

---

(١) فصل «المدرسة» .

تحوّل إلى مادة مطبوعة . على أنني لم أنصح أحداً في يوم من الأيام بقراءة ما أكتب. وغالباً ما يكفي حادث عارض ، أو ألا تروق لي صفحة ما من المخطوط ، أو أن يتأخر الناشر في الجواب ، لأدع ما كتبت في مغلفه ، ولا أعود إلى التفكير به. ما دمت في طور الكتابة لا أشغل بالي بأي إنسان . لكنني ، عندما أنتقل إلى طور النشر ، أصبح بحاجة للإطراء والطلبات الملحّة . نعم ، كان يمكن للأشقياء من أصحاب " العبقرية " ، أولئك المنشغلين دائماً بمجدهم الشخصي أو بضجرهم، أن يلزموني الصمت بكل سهولة ، لولا أن الطيّبين من أصحاب " العبقرية " كانوا طيلة حياتي ملتفين من حولي ، وسحبوا مني ، إذا جاز التعبير ، الكتاب من بعد الكتاب " .

هل علينا أن نصدّق أن أحداً من أولئك " العباقرة الطيبين " لم يضغط عليه في يوم ما بما يكفي كي يعيد تجميع هذه " الدراسات " المجموعة هنا ، في كتاب مستقل ؟ كلا ، بالتأكيد . إنما هو بالأحرى شخصياً من كان يخشى ألا تكون إعادة لما جاء به في " الأفكار والأعمار " - وفي هذا ما فيه من خداع التواضع - ؛ مثلما أنه هو شخصياً ، بالأحرى ، من اختار بكل بساطة ألاّ يعود إلى التفكير بها . ناهيك عن الإنهاك الذي شعر به ، كما سترون فيما يلي ، من طول الفترة التي قضاها في تعقبه الدؤوب لموضوع بحثه ؛ وها هو ، بدلاً من التوقف حيال ماضٍ جرى تجاوزه ، يفضل مذ ذاك فصاعداً ألاّ يعود إلى التفكير إلاّ بمستقبل المشاريع[1]. على أن هذه الكتابات بصيغتها الأولى ، هذه الكتابات التي لم يخطر له أبداً التنكّر لها رغم أن الإنهاك ، والإهمال ، والتناسي أمكنها أن تصرفه عنها ، هي على وجه التحديد ذات أهمية مضاعفة في نظرنا ، نحن : أولاً لرفعة نوعيتها،

---

(١) «لا أحب إجراء تنقيحات؛ بل أفضل الشروع بشيء آخر» (« تاريخ أفكاري» ، فصل «الفنون الجميلة») .

«أؤلف بسعادة لكتبي أعيد القراءة بضيق» (إهداء إلى مدام مور لامبلان Morre- Lambelin ، الوارد ذكرها في مختارات «مكتبة البليّاد» من كتاب «خواطر» ، ص XXXII) .

ثانياً ، وفي الوقت نفسه ، لكل ما فيها مما يساعد على ملاحقة الكيفية التي يتشكل بها الكتاب العظيم .

إننا نتلذّذ بالكتابة المطولّة حول الإبداع الأدبي ، لكننا في أغلب الأحيان لا نعلم حق العلم ما هو الإبداع ، لعدم توافر النماذج المحسوسة فعلياً والتي يمكننا أن نعاينها . ألا ، فها بين أيدينا أحد هذه النماذج النادرة . وها هو كاتب ينجح بشق النفس في ابتكار ، أو على الأقل في اكتشاف ، صيغة تعبيرية قادرة على التوفيق بدقة بين طبيعته وتفكيره : ثم ، فجأة ، وبعد أن يخيّل إليه أنه امتلك ناصية كتابه ، ها هو ذلك التأليف الجديد الذي شرع بكتابته يحرن ، ويشاكس ، ويرفس ، ويتملّص ، خلاصة القول أنه يعبّر عن متطلّبات من شأنها إعادة النظر في الأمر برمّته . لو كان الأمر مع شخص آخر ، لكان قد شعر بالإحباط ، أما معه بالذات ، فهذا غير وارد . لقد حزم أمره وإن يكن دون سرور (يجب أن نعرف هذا) ، وها هو يتفحّص العلة ، ويوجد العلاج ، ويطبّقه : وإن كان قد تنازل وتراجع ، فما ذاك إلا ليعاود السيطرة والتحكم بصلابة جديدة . وهكذا ، فشأن هذه " الدراسات " التي نحن بصددها كشأن الدراسات لدى المصوّر العظيم ، إذ هي تحافظ على جميع ما فيها من قيم تعبيرية ودلالية بالمقارنة مع اللوحات الناجزة التي مهّدت لها .

-٢-

حيّوا الشباب الحقيقي : إذ كان آلان قد دخل لتوه في ربيعه التاسع والخمسين عندما أنهى كتابه " الأفكار والأعمار " . حصل ذلك في الرابع من آذار / مارس لعام ١٩٢٦[١] . ولم يصدر الكتاب إلا بعد عام ونصف ، في خريف ١٩٢٧ . من المفيد بهذا الخصوص الإشارة إلى أمرٍ ما – مع تجنب الشروح الفلسفية أو الأدبية ،

---

(١) نشاهد التاريخ مدوناً بخط يد آلان من بعد كلمة «انتهى» ، في الصفحة الأخيرة من المخطوط الذي قدمه المؤلف إلى هنري موندور Henri Mondor وهذا الأخير سلمه لدار الكتب الأدبية لجاك دوسيه Jacques Doucet . علماً أن هذا المخطوط يبدو مختلفاً عن ذاك الذي سلم للناشر ، ونجد وصفاً موجزاً لمخطوط موندور ، وللبروفات المخصصة التي بقيت معه ، وذلك في مقدمة «الأفكار والأعمار» ، طباعة دار «منتدى الكتاب الأفضل» ، عام ١٩٦١ .

التي سوف تكون هنا في غير محلّها - يوضح توضيحاً أفضل الموقع اللاحق للكتاب الذي نقوم اليوم بنشره .

كان الموضوع ذا رحابةٍ هائلة ، ودون حدود ؛ موضوع متبدّل ، متملّص ، زئبقي ، يتعذر الإمساك به ؛ وهو يشبه تحديداً ذلك الـ " بروتي Protée " الذي تعرض المقدمة قصته الميثولوجية ، والذي سوف نتطرق إلى الحديث عنه دون تأخير . " أي موضوع ؟ إنه الطبيعة المفكرة بمقدار ما يمكن الجمع بين هاتين المفردتين[1] " . فهذا لغز من الألغاز وهو لغز ينجلي قليلاً في مقابلة بدأها آلان بإحالة الصحفي ، فريدريك لوفيفر Frédéric lefèvre [2] ، إلى كتابه " منظومة الفنون الجميلة " ، الصادر في ١٩٢٠ : فالمنظومة ، كما يقول : " تفترض نظرية حول الخيال لم يتم توضيحها وشرحها كما يجب " (علماً أنها شغلت الفصول العشرة الأولى من الكتاب الأول ، من الكتب العشرة التي يضمها ذلك المؤلَّف) . ومن ثمّ يحدّد غايته : " كنت أريد أن أشرح كيف ترتبط الأفكار بالأعمار أي بالفيزيولوجيا في معناها الأعمّ . . . فالمسيرة الطبيعية للتفكير تمضي دائماً من العاطفة إلى الفكرة . . . وبالتالي لا يعود لدينا ذلك الفكر المنفصل الذي لا أسهل من تتبع تركيباته ، وإنما لدينا إنسان يفكر ، أو ، إذا أردنا ، تفكير طبيعي ، وأفهم من ذلك التفكير المستند إلى الطبيعة ، والذي لا ينفصل عنها أبداً ، كما أنه يعبّر في الوقت ذاته عن أدق الفروق الطفيفة في المزاج وعن أمتن الروابط ، وأبعدها عن الإنسانية . . . " .

---

(١) الإهداء الموجه إلى مدام مور- لاملان، أعيد نشره في طبعة دار «منتدى الكتاب الأفضل». هذا الإهداء يزين واحدة من أندر النسخ المطبوعة على الورق الصقيل، قدمتها إلى «دار الكتب الوطنية» مدام شارتيي- آلان، كما نشاهد ذلك الإهداء، مع أخطاء طفيفة في القراءة، في مقدمة مجوعة «الأهواء والحكمة» (دار كتب البلياد، ١٩٦٠).

(٢) «ساعة مع آلان»، صحيفة «لي نوفيل ليتيرير» ١٨ شباط/ فبراير ١٩٢٨ . وهي مقابلة ضمت إلى كتاب «ساعة مع . . . » المجلد الخامس (١٩٢٩) . وليس من الغريب أن النص عرض على آلان قبل النشر؛ وعلى أي حال ، فذلك النص لم يكن موضوع أي تحفظ من طرف المؤلف أو ممن حوله : فليس لنا بالتالي التشكك بدقة الصحفي.

هذا المجال المتذبذب وغير المنفصل الممتد بين أعلى وأسفل الفكر ، بين الطبيعة الخالصة والإدراك الخالص (" هذه الساعة الواقعة بين الربيع والصيف ") ، هذا المجال الذي يطلق آلان عليه اسم الخيال ، هو أيضاً ميدان الشعر . إنه الأدب والفلسفة وقد امتزجا : آه ، كم تمكّن زملاؤه في الجامعة فيما مضى من توجيه اللوم إليه لمعاينته ، بتلك الطريقة المفرطة في ديكارتيتها ، اتحاد النفس بالجسد ؟ ذاك ماضٍ بعيد انقضى عهده ، أليس كذلك ؟ لنتابع قراءة اللقاء الصحفي ذاته :

" . . . إنما نجد في الشاعر الفكرة الحقّة . . . فالأفكار الأولى ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، كانت هي القصائد ؛ ولست بصدد الحديث عن الأفكار العملية ، الصناعية ، بل عن الأفكار التأملية[1] . وتلك قاعدة دون أي استثناء لدى بني البشر ، مفادها أننا لا نقدر على التأمل ، أي على الفهم ، إلا بتنقية العاطفة وتنقية الانفعال في الأعماق ، وذلك عن طريق قواعد متقشفة . أما الشاعر فيكثر من تلك القواعد ، ولا يتحايل عليها أبداً ، إذ هو يشعر معها بالدعم وأنها تأخذه داخل تيارها . وسوف أطلق على هذا المنهج أنه صيام فيثاغوري . ألا ومن أول الواجبات أن يضبط الإنسان نفسه " .

وعلى غرار الشعراء ، أو أقلّه على غرار أولئك النادرين جداً ممّن تقبّل أن يعيرهم السمع ، بنى آلان لنفسه منظومة من الضغوط بغية تقييد " بروتي " الميثولوجيا . إنها ، إذا شئتم ، وصفات : لكنها قائمة على نوع من الباطنية ؛ وهي تسعى إلى إيقاف تحولات وتقلّبات التفكير في انسكابه الحالم ، وإلزام الفكر المتجسّد بالكشف عن أسراره . ناهيك أنه لم يكن قد انتظر إلى حين الالتقاء مع خط سير فاليري (ومن خلال فاليري ، مع خط مالارميه) . لقد سبق التأكيد في آلاف " الخواطر " المكتوبة منذ عام ١٩٦٠ على الضيق كشـــرط للقوة والرحمة . كما سبق لـ " ثمانون فصلاً وفصل " حول الفكر والأهـــواء ، ثم لـ " منظومة الفنون

---

(١) الشعر منهج تفكير . «والواقع أن مالارميه وفاليري هما من بين رجال هذا الزمن اللذان حققا أكبر اقتراب من الإدراك الخالص . . . » (إهداء كتاب «الأفكار والأعمار» إلى مدام مور- لامبلان) .

الجميلة " (لنا عودة إلى ذلك) التأكيد على فضيلة التشدّد للوصول إلى تركيب معقّد. وشاهدنا من بعد ذلك في " الأفكار والأعمار " تصلباً أكبر لقساوة التركيب الهيكلي .

تسعة كتب ، ينقسم كل منها إلى سبعة فصول (ناهيك عن أن طول كل فصل ثابت لا يتغير بشكل محسوس ، كما أنه ، بشكل محسوس ، يعادل ثلاثة أضعاف كل " خاطرة " في كتاب " الخواطر "). مربع الثلاثة ، والسبعة ، وهذان رقمان مقدّسان . فهذه طريقة سهلة مريحة مأخوذة عن العرف العام ، أو أنها صيغة من صيغ العرف المقدس جرى الرجوع إليها ؟ كان آلان ، الذي لا يؤمن بشيء ، يؤمن رغم ذلك بواجب الإيمان بالإنسان في الحالة التي هو عليها . " هنا كنت في مصالحة مع الإنسان . وكنت أحب هذا الشاعر بما عليه وماله . كنت قد بدأت أفهم كيف يتحوّل الشقاء والسعادة إلى قصائد ، وأن الميثولوجيا ، والفن ، والدين تنسج لنا الثوب الذي نلبسه في حياتنا اليومية (١) " .

والوسواس أيضاً . لقد أخذ على عاتقه تسويغ كل ما يتصل بالإنسان ، وصولاً إلى وساوسه . أقول " تسويغ " وهي أقل من " استحسان " لكنها أكثر من " تفسير " ، - فهي تبرئة ، من خلال تحمل المسؤولية دون تحفظ حيال كل ما يتطلبه التضامن الإنساني . سوف ننظر بالتالي إلى ذلك التوقير للأرقام السحرية (٢) كتكريم يُبذل لآلهة مجهولين ؛ لنقل على المكشوف أكثر ، بطريقة فاضحة أكثر ،

---

(١) «تاريخ أفكاري» ، فصل «الأفكار والأعمار» .

(٢) يمكننا الإشارة أيضاً إلى المجموعات الأربع من «مائة خاطرة وخاطرة» من فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ ، وهو عنوان غريب يدفعنا إلى التفكير قليلاً بعنوان «ألف ليلة وليلة» ، ثم «عشرون خاطرة وخاطرة» في ١٩١٥ ، ومن ثم «عشرون مشهداً كوميدياً ومشهد» في عام ١٩١٦ ، والذي لم ينشر إلا في ١٩٥٥ ، وأيضاً «ثمانون فصلاً وفصل» في ١٩١٧ ، الخ . وعند إعادة نشر هذا الكتاب الأخير في ١٩٤١ تحت عنوان جديد «عناصر الفلسفة» ، زيد عليه أربعة عشر فصلاً : وفي تلك الفترة كان آلان قد تحرر حتى من التحرر الذي سبق أن وجده في لزوميات ما يلزم ، بحيث لم يعد له من ثقة إلا بالسلاسة الفائقة الانطلاق وفق إيقاعه الخاص به .

بخطورة أكثر : لكأنه قربان يقدّم إلى آلهة مزيفين ، لكنهم موضوع تكريم بالطريقة التي يتبدّون من خلالها كآلهة حقيقيين .

ولقد مضى هذه المرة إلى أبعد بكثير مما سبق له أن يمضي في يوم من الأيام (إلى ما لن يمضي إليه من بعد ذلك أبداً) . إلى أقصى ما يفرضه الإلزام القسري . وكانت مكافأته أن يحظى بأقصى الارتياح والحرية : أي بالكتاب المنشرح ، السلس ، المشرق ، المشرع الأبواب للنسيم ، - الموفّق السعيد .

٣

وها هي تلك السعادة حيال الكتاب السعيد الحظ قد تم الحصول عليها بعد المشقة . خطوةً من بعد خطوة ؛ نعم ، وبكل عناء . وأما الطريقة المنهمكة بتنفيذ مشروع الكتاب ، عقب مراحل إنضاج طويلة وسرية ، تلك الطريقة التي لم تخبْ حتى حينه ، فقد تعطّل أداؤها في كتابنا هذا . وما بين المشروع والإنجاز برزت صعوبات غير متوقعة ، ولا يمكن توقعها ، كما أنها لا يمكن التغلب عليها وجهاً لوجه . هي مثيرة للحنق ؛ كما أنها جديرة بتثبيط مطلق رجل يمكن أن يكون (هو لم يكن كذلك) ميالاً إلى الإحباط . فهذه سنوات مديدة من جهد جهيد دون جدوى ، من محاولات في طريق مسدود ، من حالات تأنيب النفس والرجوع إلى الوراء وهي الحالات التي من طبيعته ومبدئه أنه يمقتها أشد المقت . لقد حرن مشروع الكتاب ورفض الانصياع .

وقال عن ذلك ما قال ، دون كبير اهتمام ؛ قال أقلّ ما يمكن أن يقال ، لكنه يكفي لإثارة انتباهنا . " هذان الكتابان " (إذ قُدّمت الطبعة الأولى في جزئين) " . . . كتُبا على مهل ، وغالباً ما أُجريت عليهما تعديلات . . . فلا شك أن صدري كان يضجّ بكلام زائد وأردت أن ألزم الاختصار . وذاك لأن الموضوع راح يفيض

من تلقاء نفسه[1] . . . " ويروي أيضاً عن كتابه ، " يمكنني أن أؤكد لك يقيناً أنه ارتسم مباشرة عقب الحرب ، وأن العنوان تم العثور عليه في حينه . . . وأن هذا الكتاب امتدت إليه يد التعديل خلال عشرة أعوام تقريباً . . . (عشرة أعوام !) كانت الصعوبة تكمن في اختصار الشروح الطويلة المتدفقة وحصرها داخل أبعاد معقولة . . . (فهذا الجهد الإنشائي) لم يوفق مع ذلك في تقليص المؤلَّف إلى داخل حدود منظومة الفنون الجميلة ، كما كنت أريد . لكنك تدفعني للحديث عن كتاب يجب أن يدافع عن نفسه بنفسه . فليس المهم ما كنت أريد أن أقوم به ؛ وإنما الأمر يتعلق بما قمت به[2] " .

المنح والمنع ، البوح والتراجع : و ذلك في الوقت نفسه إعلانٌ صريحٌ للارتباكات ، وعرضٌ موارب ٌلها . ودائماً على هدي الانفعال الخانق الذي تثيره الذكريات السيئة . بكل ما في الغيظ من مثابرة وإصرار . كان قد فعل ما يريد ، لكن ليس كما يريد . كانت الأسئلة تنغّص عليه فيبعدها كما يُبعد الذباب . وأعلم حق العلم أنه قد استهجن على الدوام أن يدسّ أحد ما أنفه في مسوّدات التآليف السابقة ، سعياً إلى كشف التحضيرات المختفية . أما في كتابنا هذا ، فنحن لا نعبث باحثين في أوراقه الشخصية : وإنما نحن نسعى لمعرفة دلالة مطبوعاته وتصريحاته المكشوفة .

لقد انتهت تعبئته العسكرية في أكتوبر / تشرين الأول ١٩١٧ . ومن نهاية حربه تلك (بل هي نهاية الحرب الكبرى) إلى طباعة الكتاب ، نجد الأعوام العشرة التي دار الحديث عنها . وماذا عن العنوان ؟ لقد ظهر في ١٩٢١ في موجز الـ " نوفيل ريفو فرانسيز " - المجلة الفرنسية الجديدة - متصدراً سبعة نصوص من الكتاب سنراها فيما بعد . وارجع إلى الكتب التي نشرها في حدود تلك السنوات :

---

(١) الإهداء إلى مدام مور - لامبلان .

(٢) المقابلة مع فريدريك لوفيفر .

" ثمانون فصلاً وفصل حول الفكر والأهواء " في ١٩١٧ (كُتب في ١٩١٦) ، "منظومة الفنون الجميلة " في ١٩٢٠ (كُتب في ١٩٢٠) ، " مارس أو الحرب في المحكمة " في ١٩٢١ (شُرِعَ به في ١٩١٦ وغالباً ما تمّ الرجوع إليه وتنقيحه منذ ذلك التاريخ)[١] . فكان من الطبيعي أن يأتي التأليف الجديد مشابهاً لتلك المؤلفات الثلاثة ، وأن يظهر في تلك التآليف جميعها أول ما يظهر الدأب الذي عُرِفَ في " الخواطر " .

فما هي الحدود الواضحة التي احتفظ فيها الدأب بنفسه مع تغيّره في آن معاً ؟ نعود إلى مقدمة : " ثمانون فصلاً وفصل " حيث نجد التفسير : " هنالك نفرٌ من قرائي غالباً ما أسِفوا لأنهم لا يجدون تنظيماً أو تصنيفاً في الفصول القصيرة التي قمت بنشرها حتى تاريخه . وأنا ، بحصولي على أوقات فراغ مقموعة بكارثية ومصادفات هذه الأزمنة ، إنما أردتُ تجريب ما إذا كان التنظيم لن يتحول إلى إفساد المادة التي أكتبها " . إذن ، ها نحن كنا وما زلنا ، حسب الظواهر ، حيال " خواطر " (رغم أن " الخواطر " هنا يطلق عليها اسم " فصول " ، كما لو بقصد تسهيل الانزلاق من منهج إلى منهج آخر[٢]) ؛ ولكنها " خواطر " تصورها الذهن ودونتها اليد بتطبيق تنظيم جرى اعتماده سلفاً : وفي هذا ما يكفي لتمييز "الخواطر" تمييزاً جوهرياً عن " الفصول " الجديدة ، لأن " الخاطرة " ، تعريفاً ،

---

(١) لمزيد من الإيضاح ، انظر : «عناصر للسيرة الذاتية وللمراجع حول آلان» ، من تأليف موريس سافان Maurice Savin ، في بداية مختاراته من «خواطر» (مكتبة البلياد ، ١٩٥٦) ؛ وكذلك «آلان : مقالة في المراجع» ، من تأليف سوزان ديويت Suzanne Dewit (بروكسل ، ١٩٦١) ؛ و«السيرة - المراجع حول آلان» ، في «الكشف السنوي» الصادر عن «جمعية أصدقاء آلان» .

(٢) يمكننا الانتباه في تتمة هذه المجموعة إلى أن النصوص التي تحمل عنوان : «إنسانيات» تسمى أحياناً فصولاً (كالنص الذي يحمل عنوان : «حول اكتساب الأفكار») وأحياناً خواطر (كالنص المعنون : «غوته») . ويحق لنا أن نشير ، بصدد المثال الأخير ، إلى أن كلمة «خاطرة» جرى تصحيحها في التنقيح النهائي إلى كلمة «فصل» .

تنفتح وتنغلق على ذاتها ، دون سابق ودون لاحق ، دون ارتباط أو مرجعية بأية قاعدة خارجة عن بنيتها .

يمكننا أن نرى في " مارس " مظهراً جلياً لـ " خواطر " مترادفة ترادفاً بسيطاً حتى ليمكن أن يخطئ في تناولها القراء غير المنتبهين ، وحتى المختصون في أمور التأليف والكتاب ؛ علماً أنها حلقات مترابطة ذات توجه موحّد ، مثلما هي فكرة تتطور باطراد ، وتنظيم مقصود لذاته من بعد تأمل وتفكير . وقد أصبحت هذه الهيكلية في متناول النظر في كتاب " ثمانون فصلاً وفصل " الموزع في سبعة أجزاء ، ثم ازدادت الهيكلية متانة في " المنظومة " التي لا يضم أي من كتبها العشرة ما يقل عن تسعة فصول ولا ما يزيد أبداً عن اثني عشر فصلاً . كما أن كل فصل ينحصر ، أو يكاد ، بالمساحة التي تستلزمها " الخاطرة " ؛ وهذا ما جعلنا نعتقد في أغلب الأحيان أن آلان كتب فصوله مثلما كتب " خواطره " ، يوماً بعد يوم ، " في جهد قصير النفس ، لكنه في غاية القوة[1] " . وذاك لأن شكل وروح " الخواطر " كانا لديه الاستجابة لما لا أعرف أية وتيرة ، لما لا أعرف أي إيقاع يجري في طبيعته الكاتبة والمفكرة مجرى التنفس والدورة الدموية .

هذا الإيقاع وهذه الوتيرة ، كيف يمكنه ألا يظل متعلقاً بهما في اللحظة التي شرع فيها بكتابة : " الأفكار والأعمار " ؟ نحن اليوم لا نعلم شيئاً عن درجة التنظيم التي كان يحلم بها آنذاك ، ما كان تنظيماً في مجموعات كما في " مارس " ، أو تنظيماً تراتبياً متدرجاً كما في الكتابين الآخرين . فلعلنا ذات يوم نشاهد في الأوراق والأرشيفات الخاصة ، أو حتى في ملفات بلدة فيزينيه Vésinet (علماً أنها قد جرى تمحيصها بتدقيق في منتهى التفاني) ، انبثاق وثائق تكون قادرة على إضاءة ما نودّ معرفته ، بل وعلى إغناء حصاد معلوماتنا . نحن ، على الأقل ، على يقين من أن التدوين الأول أو التدوينات الأولى قد حافظت على المقطع

(١) «تاريخ أفكاري» ، فصل «الخواطر» .

السريع، المختصر ، المفتّت الذي رأيناه في " الخواطر " : وهو المقطع في النصوص الشواهد التي ما تزال باقية ، والتي سوف تقرؤونها بعد هذه المقدمة .

دعونا نرجع إلى مكاشفاته المتحفظة . فهو يتحدث فيها " عن قول فائض لديه ، عن موضوع " يفيض من تلقاء نفسه " ، عن " إفاضات من كل حدب وصوب " : بإصرار ، لكنه إصرار مستتر . ويترك لنا أن نقوم بالتخيل . لنتخيل إذن مادة - " الطبيعة المفكرة " - تنزلق إلى مكامن النيّة المبيّتة ؛ وها بالتالي ، تكاثر ، وتفتتت ، وتوالد كثيف ، لحشد من الفصول المضغوطة . وهي فصول تتبادل فيما بينها النداءات ، والإجابات ، والأصداء في تشابك كثيف . فما السبيل إلى تقييد بروتي[١] Protée؟

كان آلان ، قبل عام ١٩٠٦ ، قد أرسل إلى صحف في لوريان Lorientثم في روان Rouen تآريخ عديدة كان يريد لها التعبير عن " الجدية والتألق " ، ولكنه فوجئ وأصابه الإحباط ، عندما تبين له ، على المحك ، أنها لم تعبر إلا عن " العادي " و " السطحي " : هنالك عقد العزم على تحطيم الصعوبة بجعلها أكثر خطورة ؛ وهكذا كانت ولادة " الخواطر " ، تلك المقالات الشديدة الإيجاز ، لكنها في تجدد يومي مستمر[٢] . في هذه المرة ، انقلب الوضع ، إذ أصبح لزاماً

---

(١) في ملف المكتبة الأدبية لجاك دوسيه ، دوّن الطابع على البروفات تاريخ ١٥/ أبريل نيسان ١٩٢٧ . أما المقدمة فتاريخها ، بيد مدام مور- لامبلان ، هو ٩ يونيه/ حزيران . إذن جرى التنقيح لاحقاً ، ربما أثناء البروفة الثانية ؛ وربما ، حسب فرضية موريس سافان ، في بلاد «بروتي» نفسها ، على الشاطىء البحري لبلدة بولدو Pouldu . كان آلان حينذاك قد حصل على نظرة جديدة يرى من خلالها كتابه ، يساعده في ذلك الفاصل الزمني من جهة ، وتحول المخطوط إلى مادة مطبوعة من جهة ثانية . . في تلك الفترة تحديداً استقرت أسطورة بروتي في ذهنه ، لتعبر في الوقت نفسه عن طبيعة موضوعه وعن طبيعة المعركة التي اضطر هو نفسه إلى خوضها في مواجهة موضوعه . وسوف نرى كيف توازي تلك المقدمة المغزى المستخلص في اسطورة أخرى ، أسطورة غوته ، وهي التي كانت نبراس جيل آلان بأكمله ، وتبدو اليوم باهتة . أما مقدمة «العواطف ، والأهواء ، والاشارات» المؤرخة في ١٦ مايو / أيار ١٩٢٦ ، فيمكن اعتبارها مسودة مقدمة «الأفكار والأعمار» .

(٢) «تاريخ أفكاري» ، فصلا «السياسة» و«الأقوال» .

عليه التخلّي حينذاك عن الطريقة التي كان فيها النجاة (إذا كان من حقي استخدام هذه الكلمة العظيمة) . وأصبح من الواجب إعادة التجميع من حول تمركزات جديدة لأفكار قيد التفتّت باستمرار . ونتذكر كيف نبّه فريدريك لوفيفر إلى معاناته الإنشائية . فبدلاً من بذل الجهد الجهيد لمعانقة الأشكال المتبدلة لذلك الوحش الفائق اللدونة ، أصبح من الواجب الإمساك باللدونة ذاتها لدى ذلك الوحش الذي يقال له : " الإنسان " . وما سبق أن اشتدت الرغبة سابقاً في تفكيكه ، أصبح من الواجب آنذاك إعادة تجميعه . والنصوص المكتوبة سابقاً ، لم يعد يجب من أجل تحطيم ميلها للتسلل من كل حدب وصوب ، النظر إليها إلا باعتبارها " دراسات" . فتكون إليها عودة لاحقة ، ويتم التقريب فيما بينها ، وتُعاد صياغة موضوعات وأفكار انطلاقاً منها . ولم يعد وارداً التقيّد بمقاييس " الخواطر " السابقة ؛ فكل فصل جديد هو أطول بثلاثة أضعاف . كان من اللازم الانتهاء من هذا الأمر : وذلك بفرض تعريف حاسم ودقيق ، بما لا يسمح لتلك الكتابات من بعد ذلك أن تلتقي وتفترق حسبما تشاء .

وفي أغلب الأحيان أعيدت كتابة تلك النصوص ، أي أنها خضعت للتفكير ، من جديد ؛ وهذا ما يترك لـ " الدراسات " السابقة أن تبدو في سمات تأليف مغاير ومتمايز . وأحياناً يمكننا أن نجد علامات فارقة في " خواطر " تلك الحقبة – لأن ميشيل وجانا ألكسندر قد بعثا بها إلى الحياة ، Jeanne ،Michel Alexandre – وتلك العلاقات هي مقاطع فريدة في قرابتها مع هذه الصفحة أو تلك في " الأفكار والأعمار " . يمكنكم أيضاً مقارنة الفصل المعنْوَنْ " غوته " في ذلك التأليف وفي هذه المجموعة الحالية . وهنا سوف تكتشفون عمليات إعادة نسخ مثيرة للفضول ، وعمليات قص وإلصاق . نسمح لأنفسنا بعدم الاحترام : فهذا ضرب من الترقيع والحرتقة . ورغم أنها عارضة ، وجزئية ، فهي تمثل أعباء الكتابة التي كان آلان يشعر حيالها بالرعب . ومن هنا هذا المزاج الذي لاحظناه لديه .

أعباء شاقة ؟ ألا فإليها يرجع الفضل في أن الكتاب يأسرنا اليوم بالثقة الراسخة في سطوره ، بصحة وسلامة توازنه ، وبما فيه من حركة عفوية ، حرة وعجيبة .

-٤-

من " الدراسات " ، التي نجهل المدى الذي وصلت إليه ، ما زال لدينا ، حسب المعلومات الحالية المتوافرة بين أيدينا ، أربع مجموعات ، إجماليّها هو تسعة وثلاثون نصاً . أي ما يعادل عددياً قرابة ثلاثة أخماس فصول " الأفكار والأعمار " ؛ وما يعادل حجمياً الخمس لا غير . وسبق لنا الإشارة إلى أن الفصل الواحد بطول ثلاثة " خواطر " تقريباً ؛ وهنا ، نجد أيضاً النسبة ذاتها . هذه العمليات الحسابية الصغيرة مثيرة للسخرية ، بكل تأكيد ؛ لكنها مع ذلك تشهد على الاختلاط الحاصل في هذه القضية .

أما المجموعة الأولى ، ففيها ، للحق والحقيقة : هامش من الريبة . هل هي فعلاً جزء من " الدراسات " ؟ فالفرضية ، مهما بدت حقيقية في ظاهرها ، ما تزال فرضية . وإذا قارنا هذه المجموعة بالمجموعات الثلاث الأخرى ، وجدناها تتمايز عنها باختلافين : فهي لم تُكتشف إلا بعد موت آلان بثمانية أعوام ولم يقم هو شخصياً بنشرها ، ثم إنها تحمل تاريخاً دقيقاً لكل نص من نصوصها الثمانية في المخطوط الأصلي ، بينما المجموعات الأخرى لا نستطيع تأريخها إلا بتاريخ نشرها في مجلات ، وهذا التاريخ يمكن أن يكون بعيداً جداً عن تاريخ كتابتها .

هي إذن ثمانية نصوص ، معنونة كما هو شأن الأحد والثلاثين نصاً الأخرى ، ويعود تاريخها الأقصى ، المدون على أي حال بيدٍ غير يد آلان ، إلى الفترة بين ٥ و ١٤ أغسطس/ آب ١٩٢٠ ؛ لا شيء بتاريخ ٦ ، أو ٩ ، أو ١٢ أغسطس/ آب ؛ بالمقابل ، هناك نصّان اثنان في ١٠ أغسطس ؛ إنها وتيرة " الخواطر " . لقد تم العثور عليها في " فيزينيه " بين الأوراق التي خلّفها آلان وراءه ، فظهرت هذه المجموعة في عدد شهر يونيه / حزيران ١٩٥٩ من مجلة " ميركير دوفرانس -Mer

cure de France" تحت عنوان : " تكملة " ، - وذاك عنوان مصطنع ، فلم يكن للمخطوط عنوان لأنه لم يكن قد حُضّر للطباعة .

وإذ قدم موريس سافان هذه الـ " تكملة " في المجلة ، لاحظ بأنها كانت مخصصة بشكل ظاهر لتكون ضمن مجموعة كلية . لكن أي مجموعة ؟ فهي استمرار لشيءٍ ما لا نعلمه ، وتمهيد لشيءٍ ما لا نعلمه . تُراها كتابة لمحاضرة سبق الإعلان عنها ، أو أنها مشروع محاضرة قيد الإنجاز ، (علماً أن مثل هذه الكتابة التحضيرية لا يمكن أن توحي إلا بالغرابة الشديدة) ، أم ماذا ؟ ويضيف الشارح بأن " الأفكار والأعمار " ، كانت في طريقها إلى الظهور في ١٩٢٧ ، ولا بد أن يكون شيء ما قد بدأ يتحضّر في داخله - شيء ما يحقق التوفيق بين عمله كأستاذ وبين نظراته ككاتب . وهذا الشكل الذي بين أيدينا ليس بالشكل الذي عرفناه في الكتاب العظيم المنشور في ١٩٢٧ ، لكنه قد يكون في أصول الدرب الذي قاد إلى ذلك الكتاب . محض افتراض ؛ لكنه افتراض قوي .

ولا تطرح المجموعات الثلاث الأخرى مثل هذه المشاكل - مع بقاء تواريخ كتابتها مجهولة ، كما ذكرنا - ، إذ أن آلان قد عهد بها هو نفسه إلى بعض المجلات ، بعناوينها الرئيسية والفرعية ، وبأسلوب لا يدع أي مجال للالتباس .

لقد ظهرت المجموعة الثانية في أكتوبر / تشرين الأول ١٩٢١ في الـ " نوفيل ريفو فرانسيز " . والعنوان : " الأفكار والأعمار " ؛ سبق أن ذكرنا ذلك ، فالأمر واضح . لكن ثبت مراجع ديويت - Dewitt- يضيف التوضيح التالي : " سبع خواطر " ؛ وهذا خطأ بالتأكيد ، لكن له تفسيره المفهوم .

أما المجموعة الثالثة التي تحمل عنوان " إنسانيات " فظهرت في ديسمبر / كانون الأول ١٩٢٥ في : " سفينة الفضة - نافير دارجان - ") ، وهي مجلة آدريين مونييه - Adrienne Monnier- ، ويبدو أن تلك النصوص الخمسة عشر قد جاء بها إلى المجلة جان بريفو Jean Prévost . وفي عام ١٩٤٦ ، وكان آلان على قيد

الحياة، ضُمّت إلى المجموعة التي تحمل الاسم نفسه ، اسم " إنسانيات " ؛ ثم اختفت من الطبعة المنقحة جداً في ١٩٦٠ ، لتعود إلى الظهور في السنة نفسها في أحد أجزاء : " الأهواء والحكمة " ، الصادر عن " بيبليوتيك دولا بليّاد " . علاوة على ذلك ، فقد ظهرت أيضاً في ١٩٦١ بين ملاحق : " الأفكار والأعمار " من طباعة الـ " كلوب " .

وأخيراً ، تشمل المجموعة الرابعة تسعة نصوص ظهرت في فبراير/ شباط ١٩٢٦ في الـ " نوفيل ريفو فرانسيز " تحت العنوان التالي : " دراسات من أجل الأفكار والأعمار " (وهو العنوان الذي زيّن لنا اليوم أن نجعل منه عنوان كتابنا الحالي) ؛ ولم يتم الرجوع لاحقاً إليها إلا في طبعة عام ١٩٦١ للـ " كلوب " ، بأعداد محدودة من النسخ ، كما سبق أن ذكرنا في شباط ١٩٢٦ : كان الكتاب على وشك الاكتمال عندما سلّم آلان للمجلّة الأوراق المخطوطة التي لم تعد منتمية لذلك الكتاب .

ويُنسب إلى آلان قوله : " تلك الفصول التي ظهرت في المجلات هي الفصول التي اختفت من الكتاب " . " لقد طلبت مني : - نافير دارجان - عدداً من الصفحات ؛ فقدمتها إليها ؛ وهكذا ، فلا محل لها في هذا الكتاب . كان لدي دون شك كلام فائض ، فأردت الإيجاز " . " يمكن العثور في ((Navire d'argent))، تلك المجلة الجميلة رغم أفولها السريع ، على مقطوعات كان يمكن إدراجها في الكتاب ؛ ولا يمكنني أن أقول لماذا لم يتم ذلك[1] " .

" لا يمكنني أن أقول لماذا لم يتم ذلك " ؟ كان بإمكانه أن يقول ، لكنه لم يشأ أن يقول . كان يريد أن يتحدث عن الكتاب ؛ ولم يكن يريد أن يتحدث عن تاريخ الكتاب . ومع ذلك فقد ظل لديه بعض التعلّق بتلك " المقطوعات التي كان يمكن

(١) المقابلة مع فريدريك لوفيفر ؛ الإهداء الموجه إلى مدام مور- لامبلان؛ «تاريخ أفكاري»، فصل: «الأفكار والأعمار».

إدراجها في الكتاب * . ولنُشِر في هذا المجال إلى أصحاب العبقريات الخيّرة الذين حرصوا في الوقت نفسه على ألا تضيع تلك المقطوعات وعلى أن يظل اسم آلان حاضراً في فهارس المجلات . وهو بالذات ، إن كان قد سمح بذلك ، ففي هذا ما يدل على أنه لا ينكر مثل هذا الأمر . وهذا الكتاب الحالي ما كان آلان ليتأخر في تبنّيه ؛ ربما مع بعض الغمغمة ، كما كان شأنه دائماً ، في تظاهره بالممانعة ؛ لكن بكل تأكيد مع استمتاع ، وحتى ، إذا صح ظني ، مع قليل من الفرح .

صمويل س . دوساسي

تكملـــة

ما أكـون

(٥ أغسطس / آب ١٩٢٠)

هذه الوحدة المنطقية في داخلي ليست شيئاً ما . إنها شكل ؛ ولا وجود لي إلا من خلال المضمون . فأين هي طبيعتي الحقّة ؟ أما طبيعة الأشياء ، مع أنها تفرض نفسها علينا بقسوة ، فلا بدّ من البحث عنها وتقصّيها . إذ كل ما هو ظاهر مغلوط . وليست حقيقة أية مادة محسوسة في ما تظهر عليه بدايةً . يصدق هذا الأمر أكثر مع طبيعتي التي لا أستطيع حيالها توقّع ما سوف يحصل ، ما دامت حتى أخطائي تتمثل فيها كوقائع حقيقية ، إذا جاز لنا مثل هذا القول . فهل أسعى إذن لترك الأخطاء من بعد الأخطاء على رسلها ، كي لا أفسد طبيعتي الحقة ؟ هذه قاعدة لا سبيل إلى تحمّلها ؛ ولكنها غالباً ما تُطبَّق على الأهواء ، وعلى كل حياة هي رهن القدر المحتوم ؛ فليس من النادر أن تُعشق الأخطاء ، باعتبارها حقائق "الأنا" على الأقل ، والطبيعة المحكوم عليها بظاهرها الفوري الخاص بها لا ترى ذلك أمراً يسيراً . ولا مجال لإبداء الدهشة في الانفصال عن تلك الذرائع ؛ ألا فذلك هو الألق الخاص بالأنا . ويمكننا التنبّه إلى أن أضعف الذرائع محاججة غالباً ما تكون هي أكثر الأفكار تحريكاً للكبرياء ؛ والدهشة التي يبديها الآخرون يكون لها آنذاك طعم الإطراء . ولو سلّط التفكير أضواءه على هذه الاستكانة المتكبرة ، يكون ضربٌ من الجنون غير المترابط لأن الأفكار الاعتراضية السريعة ، التي غالباً ما

تهلّ قادمة ، سوف تُعشَق هي أيضاً ، وسوف يبدو حيالها كل موقف ثابت ضرباً من إهانة الذات . ولا يمكن لأحد التفكير من خلال هذا التصورّ بأن الأفكار الأولى قد تكون الأصدق والأصح ؛ فالتفكير يفترض وجود رأي مناقض مباشرة لذلك التصور المغالي ؛ وأنا بمجرّد أن أبدأ بالبحث فهذا يفترض أنني لم أعد أقبل بتاتاً .

هناك حدٌ أدنى ، أصلب وأشد مقاومة ، مصدره من الأشياء ، وهو المزاج . إنما ، علاوة على أن علينا اكتشاف هذا المزاج ، بل وابتكاره تقريباً ، فهو في نظر أفكارنا غير محدد على الإطلاق ، ولا من اسم له ولا من شكل . علماً أن إرجاع الأنا إلى حدود المزاج الخالص هو في جميع الأحوال جنون ؛ وهكذا المنساقون وراء أمزجتهم فهم مهرجون على الدوام أكثر مما يخطر على بالنا مثلما هو حال الأمير العجوز بولكونسكي لدى تولستوي .

لا أحد إذن يستطيع الركون إلى طبيعته . ففيها شيء من الثبات بفعل علاقات العادة وضروب الهوس ؛ ولكن فيها أيضاً ما يؤكد قانون التناقض ، وغالباً ما يكون المزاج متبوعاً بنقيضه المتمّم له ، وفق قانون العطالة ، كما نشاهد في آثار الإدراكات البصرية . وهكذا فانتظار المرء للعدل ، أو للطيبة ، أو للشجاعة ، من داخله بالذات ، هو انتظار لا جدوى منه . فالمزاج الجيد لا يحمل معه أية ضمانة ؛ ولا حتى المزاج السيئ . حتى الاستياء المشاكس يتطلب رأياً وإصراراً . وهذا ما يفرض على العكس ، عند التصدي للمظهر البسيكولوجي ، أخْذَ العهود على النفس ؛ كما يُفترض ، تبعاً لكل عهد يقطعه المرء على النفس ، أن يتم التغلب في كل لحظة على ذلك المظهر ، ليذكّر المرء نفسه بنفسه بما يريد أن يكون . إذن ، ليست الأنا البسيكولوجية هي الشخص ؛ ولا توجد أدنى فضيلة ، حتى ذهنية ، في تلك الوحدة التي تستقبل كل شيء ، ولا من شخص يعيش وفق عالمه النفسي باستثناء المجانين ، فهؤلاء وحدهم يظنون بالمطلق أنهم هم أنفسهم بالذات .

ولعلنا نلمح في هذا لِمَ يسود في جميع التأملات حول الطبائع شيء من

الالتباس . ودون أن نتطرق إلى الحكم الأخلاقي ، الأوسع انتشاراً مما نظن خاصة في سن الشباب ، من الواضح أن التركيب الاجتماعي يحدد دائماً الفرد من خلال الرأي العام ، والحرفة ، والوظيفة والعمل ، وهذا ما يحد كثيراً من المغالاة الطبيعية . ومن الواضح أيضاً أن التقليد الغريزي والتقليد الإرادي يضاعفان أقوى السمات الإنسانية ، ويحددان ليس فقط طبع كل امرئ ، وإنما أيضاً التصور الذي يصيغه حول نفسه . وهذا ما يجعل البشر متشكلين وقيد التشكيل الذاتي . ولو أردنا استبعاد هذه الاستطاعات البشرية ، والقبض على ما هو بدائي في الطبيعة الخاصة ، فإن الطبع سرعان ما يهبط إلى دَرَك المزاج . وهذا هو قانون تلك الحياة الحركية والفعالة ، التي يُراد لها الصعود أو الهبوط ، وأن ذاك الذي ما هو بالبُطْل على الإطلاق ، ليس حتى بالمجنون . وعلينا القول بأن الطباع في حالة النقاء الخالص لا وجود لها إلا في المسرح ، وبفضل فن المسرح تحديداً . أما في الحياة الفعلية ، فالطبع لا يُسمّى ولا يُتعرّف عليه ، بل حتى لا يتم تثبيته ، إلا بمقدار ما هو تحت السيطرة ؛ وكذا شأن الفردية أيضاً . فالأدنى يحمل الأعلى ؛ علماً أن الأدنى لا يُعرف ولا يُحدّد إلا من الأعلى . هذا ما هو مرئي خاصة في مجال الفردية ، التي تهبط إلي أسفل سافلين ، إذا لم تكن متوَّجة بشيء آخر ، كما نشاهد لدى العامل ، والموظف ، والمصرفي . والمرء لا يحتل موضعاً له إلا إذا سيطر على موضعه .

الوسط الإنساني

(٦ أغسطس / آب ١٩٢٠)

يكبر الفرد داخل الوسط الإنساني ؛ ومن هنا يستمد الفكر غذاءه بادئ ذي بدء . علماً أن " الأنا " لا تفتقر إلى النسيج في البداية ؛ فهي لا تنتج عن إعمال الفكر وعن سلسلة مترابطة من التجارب ، بل هي على العكس شكل كل كائن موجود ، وحدّ كل علاقة . هذا التصورّ هو ما تمليه علينا وتذكرنا به أبسط التجارب العادية . أخي وأنا ؛ لويس ، وبول ، وجاك ؛ والدك أنتِ ، يا ماما . الأغراض الأولى التي نعرف هي شخصيات ، يأتينا منها بادئ الأمر كل عون ، ونجد فيها كل مقاومة ، والمنافع جميعها ، والأضرار جميعها . ويخضع الطفل فترة مديدة للسلطة الإنسانية ، قبل أن يعاني من قدرة الأشياء ؛ لذا فهو لا يخطر له أن يضرب حائطاً ، لكنه يضرب ضرباً محموماً باباً أغلقه أحدهم ، أو يمكن لأحدهم أن يفتحه له . وإنما يُحرّم تحديداً على الطفل في النظام العادي للأسرة أن يمارس قواه حسب استطاعته ؛ وهذا ما يُشعره لفترة مديدة بالعبودية قبل أن يشعر بأنه محدود القدرة . وحتى عند وصولنا إلى سن النضج ، فخارج المهن اليدوية ، لا نشعر إلا قليلاً بقدرة الأشياء ؛ وفي الحالات جميعاً لا نشعر أبداً بقدرة شيء ما إلا من خلال الشعور بقدرتنا ، وهناك تجاوز على الدوام ، لأن الأشياء لا تعرف الخبث ؛ بينما الإرادة الإنسانية نشعر بها في كل خطوة نخطوها . للحرب ألف مصدر ، لكن لعلّها تصدر أيضاً من تلك الرغبة المكبوحة مرات ومرات ، رغبة أن نجرّب على البشر نوع القدرة التي نطبقها على الأشياء ؛ فهذا ثأر من عبودية طويلة الأمد .

هذه الفكرة بسيطة ، ولا أيسر من اكتشافها ؛ ولكم يتناساها المؤلفون في كل وقت ، في سعيهم لتعقب أصل معارفنا في تعاملنا مع الموضوع المادي ، علماً أن المواضيع المادية الأولى في معرفتنا ، والتي هي الأهم منذ البدايات ، ليست سوى الكائنات البشرية التي تسمّي الأشياء ، وتتكلم ، والتي لكلٍّ منها امتيازاته وسلطاته، مثل الآلهة الوثنية ، بابا ، وماما ، والخادمة . وهذه آلاف الصور عن أناي ، التي ليست أنا ، والتي أنا حيالها شخص ما ، وليس شيئاً ما . أنا أرى نفسي إنساناً في المرآة الإنسانية .

أضيفوا التقليد ، الطبيعي جزئياً ، والذي سرعان ما يصبح إرادياً . وتذكروا أن تلك الحياة الأسرية هي حديث لا ينقطع ، مطبوع بعواطف حارة . من الواضح بما يكفي أنّ تصورّ الأنا يتشكل في ترابط متبادل مع تصورّ الآخرين ؛ وأن التعارض يُعدّل فيه تماماً كما يُعدّل فيه التقليد ؛ وأن اللغة ، واسم العلم ، والآراء ، والأحكام ، وكل ما في الأسرة من جلبة خاصة بها ، لها في هذا المجال استطاعة حاسمة ؛ وأننا في النهاية إنما نأخذ عن الآخرين معرفتنا الأولى بأنفسنا . ويا له من جهد دؤوب يقوم به الجميع كي يذكروني بذاتي شخصياً ، ولدمجي مع ما أفعل وما أقول ، ولسرد ذكرياتي عليّ أنا شخصياً ! فالتأريخ الشخصي يتم إنضاجه ، ومناقشته ، والإشراف عليه جماعياً ؛ إنني أتعلم تاريخي بالذات ؛ وكل ما هو توهم أو حلم يتمّ نفيه بادئ الأمر نفياً قوياً بالثرثرة اليومية ؛ وهكذا تكون خطواتي الأولى لمعرفة نفسي بالذات هي أكثر الخطوات رسوخاً . كما أن هذا التصورّ لنفسي كفرد ، مرتبط بالآخرين ، متمايز عن الآخرين ، معروف منهم وخاضع لرأيهم بي مثلما أعرفهم وأحكم عليهم برأيي ، هو تصورّ يسيطر بقوة على كياني بأكمله ؛ وفيه يجد الوعي الداخلي شكله وأنموذجه ؛ ليس هذا بالخيال الروائي ؛ بل أنا دائماً في نظر نفسي كائن يصنعني الرأي العام من حولي ؛ ليس هذا غريباً عليّ ؛ إنه في داخل أناي ؛ فالوجود الاجتماعي يمسك بي من الداخل ؛ وإذا لم نشأ أن تفوتنا فكرة هامة ، كان علينا تعريف الشرف بأنه الشعور الداخلي بالعقوبات الخارجية .

هنا مخبأ عدد كبير من المفارقات ؛ إذ ، على سبيل المثال ، أن الرأي العام الذي أتخيله غالباً ما يكون لدي أهمّ من الرأي الذي أعاينه حقيقة ؛ وأن الرأي العام الذي قد يتشكل أو يكون قد تشكل لديّ حيال الآخرين ، غالباً ما يكون هو الرأي الذي أريد لهم الآن أن يتبنوه . لقد جعل بلزاك بطله سيزار بيروتو متشدّداً قاسياً حيال مظاهر الضعف والفشل ؛ وهذا تفسير العذاب الذي فرضه على نفسه باسم الشرف ، رغم جميع الشواهد . موجز القول أن الرأي العام يلاحقنا في العزلة ، وغالباً ما يزداد قسوة آنذاك . ومن الضروري أن يوجه علم النفس اهتمامه إلى هذا الجانب . لقد رسّخ قدميه على الأرض عندما أصبح بيولوجياً ، لكن عليه أن يكون سوسيولوجياً ، لا في ميدان التجريد ، وإنما على مستوى الفرد بالذات ، مثلما كان على الدوام شأن أعظم الروائيين . إذ ليس من المعقول المحافظة على يقظة الوعي بذلك المبدأ الهش ، مبدأ التداعي الذي ليس في حد ذاته سوى ضرب من الوسواس والجنون . وإذا مضينا مع هذه الفكرة إلى مداها ، توجّب القول بأن تصور الإنسانية، المتولدة من اتصال مستمر ومحرك للانفعال ، هو في صميم الأنا لدي ، وهو تصورّ بنّاء وله الأولوية .

حـول التقليـد

(٨ أغسطس / آب ١٩٢٠)

أنا إذن مجتمع ، والرأي العام يتربع على عرش حياتي . الأسباب الداعية لمعارضته مستمّدة منه بالذات ؛ وإنما أعارضه من أجله وكي أكسبه إلى صفي . ما فيه اختلاف يزعم أنه عام ؛ والأشدّ اختلافاً هو الأعمق عمومية . وما أستطيع إطلاع الناس عليه هو الفكرة العامة الحقّة لديهم ، التي كانت لديهم ، والتي قدّموها إليّ ، والتي أنقلها إليهم . فعندما أفكر ، يمسك بي الرأي العام ويشدّني إلى الخلف وليس إلى الأمام . في جميع الأحوال ، أكون منجرفاً وقبضته تمسك بي . إضافتي ضئيلة ؛ لأنني إنما أعيد الاكتشاف . إنني أكتشف رأياً عاماً مختلفاً ، لا يقلّ تماسكاً وعمومية ، يقوم بتصحيح الرأي العام السائد الآن في الخطابات العامة . وهذه الهيمنة الطاغية ، أرضى بها إذن وأُكِنّ لها المودّة . وهذا ما يجعلها أبعد مدى من هيمنة الأشياء ، فهذه بمجرّد ارتفاعها كعوائق ، تفرض نفسها قسراً دون طقوس احتفالية كما يقال دون أي مجانبة للصواب ؛ ألا فالطوفان لا يداري ولا يراعي أحداً . وأما الطقوس الاحتفالية فهي ، على العكس ، فيها مداراة ومراعاة ، وتسيطر بأسلوب مختلف . إنها قوة خارجية تفعل فعلها عن طريق الإقناع الداخلي . والحرب ، خاصة في بداياتها ، تجلو هذه الروابط بوضوح . لكن لنتبع التسلسل النظامي في هذا الموضوع الرحب ، الذي لا صعوبة فيه إلا لأننا ننسى دائماً جانباً من جوانبه .

تشدّني ، دون أدنى إكراه ، أفعال الآخرين ، فور ارتسامها جلية ، بعد التخلص من التردد . ولنحسن التمييز بين التدافع والفزع ؛ فالفزع لا يلمسنيَ حتى بأطراف أصابعه ؛ إنه يعطيني منه إشارة لا غير . ألا وكل نهر إنساني يجري ، صاخباً أو غير صاخب ، وفق قانون التقليد الفوري . التنحّي يميناً ، التوقف ، تأمّل السين ، تأمّل الهواء ، التثاؤب ، الضحك ، البكاء . يلاحظ هامب أن الأسواق الشعبيةَ تمشي أمورها بشكل طبيعي في الشارع ؛ لكنه لا يذكر السبب ، وهو أن التقليد آنذاك يعطي تأثيره ؛ أما حين الدخول لا غير إلى السوق المسقوف ، فلا بد من وجود الإرادة في القيام بذلك ؛ إذ هناك الداخلون والخارجون .

ليس من السهل تفسير التقليد الفوري . هناك نظرية شهيرة لسبينوزا ، يبدو أنها تفسّر هذا الأمر لسبينوزا ذاته ؛ وليس لي أنا شخصياً أو لمن أعرف . يمكن الاعتقاد بأن إدراك نظيري ، كما هو إدراك كل شيء ، يفترض دائماً حركة فيها تقليد للشكل ؛ وسرعان ما يتبين أنني ، إذا ما قلّدت نظيري ، فلا يتم ذلك إلا فيما بعد ، لأنني أُعمل التفكير طبيعياً بأفعالي . من الواضح بأن الإشارة ، التي لا تعدو أن تكون تلك الحركة المقلّدة ، تُحدث بادئ الأمر المودة ، بالاضطراب العضوي الناجم عن تغيّر الموقف . والمودة هي بصورة رئيسية ذلك الاضطراب الذي لم أتوقعه بالمرة ؛ وهذا ما يفسّر لماذا تأتي أكثر صنوف المودة عفوياً لدينا من حضور الناس الآخرين ؛ فلستُ في بادئ الأمر سعيداً أوغير سعيد إلا على سبيل التقليد ، كما نشاهد لدى الأطفال ، وهذا الجانب من عواطفي هو دائماً الأهم ؛ وإنما تولد العواطف المركبة دون شك في أغلب الحالات من مقاومتي لتلك الأفعال الغريبة عني . فلا أحس شيئاً حين الفزع ، لأنني لا أقاومه ؛ ولا يشعر الطفل بأنه يحب أمه ؛ لكنني يزداد شعوري بالحب كلما كانت مقاومتي أفضل .

وهكذا فالمزاج ، في تقلباته ، ورغم تعبيره دائماً عن طبيعتي ، يتنظّم بالمشهد الإنساني . وإن إلغاء تبادل الإشارات هو طريقة غير معروفة كما يجب ،

ولكنها طريقة قوية كل القوة لتهدئة الأهواء . ومن الواضح أن اللغة هي في البدء التقليد بذاته ، الذي تنضم إليه المودة دون تأخير . على أن من الأفضل أن نقول أيضاً بأن اللغة إنما تعبّر أول ما تعبّر عن الأفعال ؛ مثلما أن الصراخ ، الذي قُدّر له التطور بشكل مذهل ، هو في بدايته نتيجة فعل قوي دون أي تحضيرٍ متأنٍ مصدره ، كما نعلم ، معمل القفص الصدري والحلقوم . ولذا فهناك دائماً طابع ما من القداسة ، بمعنى الإلزام الخارجي لكنه المقبول والمرغوب ، في الحركة والكلام . ولكل حضارة حركات وأقوال مستحبة ، تقابلها أقوال وحركات مشؤومة . تشهد على ذلك الأيمان ، واللعنات ، والتضرعات ، والتمائم ، والسحر برمته ، وكذلك الشتائم بكل ما فيها من صيغ . ألا والفصاحة هي في جوهرها سحر . وسبق لي أن أشرت إلى القدرة المرتبطة بالمسرح ، الذي لا يأخذ من الحياة الإنسانية سوى الخطابات ، ويتخلّى بازدراء عن الأفعال .

حـول الإعجـاب

(١٠ أغسطس / أب ١٩٢٠)

أستقبل دمغة المجتمع المحيط بي ، هذا صحيح . لكن هذا لا شأن يذكر له بالقياس إلى التقليد المنتقى ، الحماسي ، العنيف تقريباً ، كما نرى في كلّ طفل ، والذي هو أقل الأمور تغيّراً على امتداد العمر . فالإنسان متغيّر في ما يعانيه ، مثلاً كمحارب بعد سنوات من الوجود المسالم ، وكمتسوّل من بعد غنى ، وكفاقد للثقة من بعد يقينٍ واثق ، وهكذا في جميع الأمور . وأما بشأن ما أقسم الأيمان يافعاً أن يصير إليه ، فلا يصيبه التغيّر إلا قليلاً ، إذ هو يسير بعزم ثابت على آثار نموذج معبود . " الإنسان ربٌّ للإنسان " . هنا يكمن أحد أقوى محركات ذلك الجنس الجميل ، الذي يرى الأمور العظيمة والذي يريد أن يكون عظيماً . فالإعجاب شعور عام مشترك ، أكاد أن أقول : شامل ، وهو في الوقت نفسه شاهد على الوعي وصانع له .

في الوجود الأسري ، يتجلّى استعداد الإعجاب ذاك ، لكنه غالباً ما يقاوَم بالضغوط ؛ فليس من عظيم في الأسرة ، لأن خصوصية الأسرة أنها ملتقى الأمور الصغيرة ، والتي تهيمن حتى على الأمور العظيمة . ولكن خصوصية الوجود السياسي أنه يُحكَم فيه على الناس من خلال الأفعال ، التي تسمو دائماً وأبداً فوق مظاهر ترددنا الغامضة . الناس عاديون ، أما أفعالهم فغالباً ما تكون بطولية .

ويضفي التقليد الذي درسناه على الأفعال الجماعية دقة ، وثقة ، وإقداماً ، تثير الإعجاب ، وهذا ما نراه عندما تصل مضخات الإطفاء وتُرفع السلالم قرب الحريق . وقد يكون من الأسهل أكثر فأكثر إبداء الإعجاب بالأنماط التاريخية وخاصة الأسطورية ، لأن الإعجاب هو الذي رسم لوحتها بصورة رئيسية . لكن كل إنسان يبدو أسطورياً ، داخل نطاق العلاقات السياسية . إنه دائماً أكبر مما هو عليه بحجمه الطبيعي .

وكم يحيرني ، عندما أُعمِلُ فكري بها ، تلك الممارسة الدؤوبة للإعجاب ؛ إنها التوجه الذهني الطبيعي ، خاصة بين اليافعين . ولم أشاهد إلا القليل من البالغين وغير البالغين ممّن لديهم الاستعداد لامتداح أنفسهم . لكنني شاهدت الكثيرين من الصغار ، والكثيرين من الكبار ، من بسطاء الناس ، فمنهم من يمتدح شقيقه ، أو والده ، أو أستاذه ، أو صديقه . ونؤمن بأن " بايار " لم يعرف الخوف أبداً ، لأننا نستهلك في حياتنا رأس مال ضخم من التدين ، أعني التبجيل ، والإعجاب ، والتفاني . وأما النفور من البشر فمصدره الطبيعي التناقض بين ما نأمل أن يكون عليه الناس وبين ما تكشفه لنا التجارب عنهم . وأسطورة هرقل فيها الجلاء الأفضل لتلك الحاجة المتعطشة لعبادة الشكل البشري . ونجد لدى ستاندال ما للطقوس الاحتفالية من قوة تحفر تأثيرها في بطله جوليان وخاصة في تلك الصبايا ، من بنات براي – لو – هو . ويتجلى ذلك بصورة أفضل أيضاً في فرسان الفرقة السادسة وهم يربطون أعنة خيولهم بقضبان السور الحديدي ؛ أما بالنسبة لهم ، فهم لا يفكرون إلا بربط خيولهم ؛ وأما الطفل الذي يراقبهم فلا يفكر إلا بالمعارك . تفسير هذه الحاجة للإعجاب أمر سهل ، إذا راعينا أن الطفل يعيش بدايةً في عالم إنساني يأمل فيه كل شيء من أولئك الذين يحبهم ، وحيث يجد نفسه مطمئناً بحضور البطل الذي لا يُقهر ، والده ؛ وربما كان ذلك الوالد موظفاً يخاف من كل شيء .

مختصر القول ، من صميم الطبيعة البشرية إيجاد أنموذج يكون محطّ إعجاب ، للوقوف في وجه ضعف الطفولة ، والذي هو حالتنا الأولى ، وكذلك في وجه ضعف وعدم انسجام اضطراباتنا الدنيا . وعلى الرغم من كثرة الإطراءات التفخيمية السهلة ، فمن الطبيعي ألا يعطي الإنسان لنفسه بالذات تقديراً كبيراً وأن يضع الآخرين في أعلى مراتب التقدير من خلال أبسط الدلائل . كان بيكو يقول بعمق إن كلاً منا ، عندما يدخل إلى وسط جديد ، يتلقى ذخيرة من رأس مال قوامه التعاطف ، والتقدير ، والإعجاب ، وهو رأس مال لا ينازَع فيه ؛ ولكنه هو بالذات من يبدّد رأس المال ذاك . وإنما مصدر سوء الظن بين الناس أنهم يفرطون في تجميل ما يرون . وما فضائل ولا نقائص الشاب اليافع إلا بسبب الإعجاب الخالص . لقد صنع الطيار الفرنسي غوينمار أبطالاً . فكم من قائل لنفسه : لا بد من تقليده ، فكان لا بد من دفع الثمن بتحويل الأقوال إلى أفعال . وكل امرئ يقلّد شجاعة لم يكن لها أبداً من وجود .

حـول الـوظيفـة

(١٠ أغسطس / آب ١٩٢٠)

النظام الطبيعي ، أعني النمو المنتظم للشخص الإنساني ، يتطلب دون شك دعمَ الواجب الخارجي ، المحدَّد ، المحسوب ، اليومي ، والذي ينظّم المزاج والشخصية . فالموسيقي ، والدبلوماسي ، والقاضي ، ورجل الدين ، والنجار ، ومدير المعمل يمكنهم الوصول إلى بناء الشخصية على أساس درجة الفردية التي يتلقون من خلالها العون ، والدعم ، والحماية عن طريق الدعائم الخارجية . فليس بالأمر البسيط أن يكون المرء مضطراً لتلبية ما يتوقعه الآخرون . إن كلمة "مسؤولية" تتضمن على الدوام ، بمعناها الكامل ، وعداً عاماً ، مهمة ، وظيفة . يعدك النجار بأبواب ، والقاضي بأحكام وفق القانون . على أن بعض الوظائف أكثر حرية من بعض ، فهي تتيح تجاوز المزاج الشخصي والقفز من فوقه ، أو هي تجعله قيد الاستخدام . لقد عاينتُ قاضي تحقيق لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره ؛ فكان في سلوكه منذ ذاك العمر مصداق ما قال نابليون من أن الإنسان الواقف بمفرده، في مكان مرتفع ، تحت أنظار الجميع ، لا يمكنه أن يبيح لنفسه القيام بحركات عنيفة . غير أن نابليون ، بكلماته تلك ، إنما كان يتكلم عن نفسه بالتأكيد، إذ من الواضح أن مزاجيته كان لها هيمنة مفرطة . فهو قد حظي بسلطة فائقة في سن الشباب ؛ ولذلك فقد عزف على أوتار مزاجيته ، لعدم تيسّر ما هو

أفضل ؛ وكان مهرجاً في ذلك ، حسب وصف البابا له . إن الفردية تتأكد تأكيداً أفضل بزيادة الالتزام ، وبالتدريب الطويل الأمد .

نظراً لأن هذه الشروح ليس فيها أي غموض ، من المهّم أن ننشئ تقسيمات جيدة ؛ والمثال الذي ضربناه بصدد نابليون يقودنا إلى النظر في تقسيمٍ أراه ذا أهمية . فمن الوظائف ما يؤدّى في طقوس احتفالية ؛ ومنها ما لا حاجة به لذلك . هنا تشكيلان مختلفان ، ويقسمان كل مجتمع إلى طبقتين ، نمطاهما هما البروليتاري والبورجوازي . فالبروليتاري هو كل من مارس تأثيره على النظام الخارجي ليستخلص منه منتجات ، كالمعدّن ، والنجار ، والحداد . والبورجوازي هو كل من مارس تأثيره على النظام الإنساني ، ليستخلص منه منافع ، كرجل الدين ، والمعلم ، والمصرفي ، والتاجر . فلم تكن القضية الكبرى لدى سيزار بيروتو تصنيع " زيت الصداع " ، وإنما قضيته بيع ذلك المنتَج . بينما قضية البروليتاري مراقبة الأشياء ، ليستخلص منها مبادئ العمل التي يجب عليه اتباعها دون أية مشاكل ؛ فإذا أرضى ذلك أم لم يرض الآخرين ، سيّان لديه . إنه دون مظاهر احتفالية ، كما يقال ؛ هو يرتدي ثياباً للعمل ، وليس من أجل الرأي العام . وأما البورجوازي فشغله الشاغل الحصول على الرضى ، وأن يكون مقنعاً ، ومغرياً؛ وأما ربّه فهو " الرصيد " ، تلك الكلمة الرائعة بمعنييها ، الحقيقي والمجازي .

لنلاحظ بأن هاتين الوظيفتين تحدثان أثراً مشتركاً قوامه ضبط المزاج الشخصي . فإذا انجرف العامل مع الانفعال ، سوف يخرّب القطعة التي يشتغلها ؛ وإذا انجرف البورجوازي مع الانفعال ، سوف يفسد عملية البيع ، أو أية عملية تفاوض ينتظر أن يجني منها ربحاً له . لكن علينا أن نلاحظ أيضاً الاختلافات . فالبروليتاري يتغلب على مزاجه بالعمل العضلي ، الذي هو طريقة جيدة للجميع متى أرادوا مواجهة القلق ، ونفاد الصبر ، والغضب ؛ ذاك لأن جسد الإنسان لا

يمكنه التوزع في اتجاهين في الوقت نفسه ، مما يعطي ليونة العضلات القدرة على تليين وتخفيف كل شيء . وليس في هذا أي نفاق ، أو أدنى مراقبة للذات ؛ فالشيء بذاته هو الذي يتكفّل بضبط الإنسان . وكذلك من سمات البروليتاري العنف خارج نطاق العمل ، وهو عنف خشن ، لكن دون تبعات ، مثلما هو دون حدود ؛ دون ذكرى باقية ، دون ضغينة ، دون سوء مقصود ؛ ختاماً ، دون تفكير . العمل سرعان ما يزيل المزاج بالرياضة البدنية ؛ إنها القلب الصافي والطفولة . أما البورجوازي فهو على النقيض ، يكبح زمام أمره ويلجم نفسه دون أي عون خارجي ، بالفكر ولا شيء سواه . ومن هنا تكون العواطف دون حراك ، مع قوة تعبير متحفظ ، هي من جانب تلطّف المزاج ، لكنها من الجانب الآخر ، تجعله موضع انتباه ، وتؤمّن استمراره كذكرى ، وهي بذلك تصقل الفردية بصورة أمثل . لأن علينا أن نتنبّه إلى أن قواعد الكياسة أبعد ما تكون عن إزالة الاختلافات الطبيعية، بل هي على العكس تنظمها وتثبتها . إن دبلوماسيَّيْن ما أو رجلي دين لا على التعيين هما مختلفان فيما بينهما بالتعابير والمفردات أكثر مما يمكن أن يكون الحال بين عاملين . فما بين العمال ، لا نرى غير الاختلافات الطبيعية ، أو الحيوانية . أما لدى البورجوازي ، خاصة لدى البورجوازي الكبير ، ذاك الذي يبيع الاستشارات وليس الخوخ ، فتظل الأفكار باقية، وتترك أثراً لها في الخارج ؛ فكأنما قد تزيّنت تلك الاستشارات بكل ما لم تقله .

حـول الـذكـرى

(١١ أغسطس / أب ١٩٢٠)

لا ينفصل التفكير حول الذات عن الذكرى . وهذه وظيفة من وظائف الفكر جرى وصفها مرات عديدة ، ودائماً بإعطاء صفة مجرّدة للوسط الإنساني وحتى للفعل ، كما لو كان التأمل في الزمن مقصوراً على المنعزلين وعلى الحالمين . لكن لا وجود للمنعزل ولا للحالم إلا لفترات قصيرة من الزمن . فالإنسان يتعلم تقريباً من الآخرين كل ما يعلمه ، ولا وجود له إلا بوضع أحلامه على محك التجربة ، وهذا ما يحولّها إلى إدراك حسي . هذا التحرك المستقصي الذي يسبق ويضيء الفعل ، يرسم أيضاً خط الزمن . لا أستطيع ها هنا تقديم برهان ما ؛ لكن يُزيَّن لي بأن الزمن لا يمكن اجتيازه أبداً والتفكير فيه بحركةَ متقهقرة ؛ إذ ، دائماً ، حتى في الذكرى ، ننطلق نحو الزمن القادم ، كما هو شأن الفعل ذاته ؛ التذكّر هو بدء جديد . والزمن هو بادئ الأمر المستقبل ؛ ولا وجود دون شك في الماضي إلا للمستقبل ؛ فالتذكّر يعني بالتالي الرجوع مجدداً إلى التوقّع ، والتحفّز ، والتساؤل ، وتحيّن الفرص . وتصبح هذه الملاحظات ناصعة الوضوح إذا فكرنا بأن كل حقبة من الزمن كانت تفكيراً من قبل أن توجد ؛ فالزمن موضوع تفكير مسبق يتم إنجازه أو ملؤه بالفعل لاحقاً ؛ لكنه لا يستطيع أن يبقى كذلك مع مضمونه كشيء مهمل لا فعالية له يمكننا متى شئنا أن نلفه أو نفكه كما تُلف وتُفك البكرة . فقانون الزمن قوامه أن كل لحظة تبعد الأخرى ، وأنه لا يوجد تسلسلان لتلك الولادة ولذلك الموت دون توقف ،

وإنما هناك تسلسل واحد . والتفكير في الزمن هو إذن دائماً وأبداً التفكير بأننا قيد القيام بأفعال . أما إذا أردنا أن نحاصر تجربة الزمن عن قرب ، فمن واجبنا القول بأن التجربة الأولى للزمن الماضي هي فعل مستعاد ، هو في الوقت نفسه جديد ويجري التعرّف عليه ، لكن مع وجود اختلافات تتم ملاحظتها في الوقت نفسه . ها أنا من جديد مع ممر الأشجار الذي عرفت في طفولتي ، ولكن الأشجار كبرت . وليس صحيحاً أن الطفل يتعرّف على الماضي في أفكاره من قبل أن يكون قد تعرّف عليه في إدراكاته وأفعاله . فالتوقّع المخدوع في جانب منه ، والمؤكّد في جانب ، عندما أرى أماكن عرفتها حق المعرفة ، هو التجربة النمطية والتصور الأول عن الزمن الماضي ؛ وهذا بادئ ذي بدء حضور الأشياء التي نقول عنها " من أيام زمان " . كما نرى فالتوصيفات الكلاسيكية يجب الرجوع إليها .

هناك أيضاً الأفضل مما يمكن قوله بهذا الصدد ؛ إذ بكل تأكيد لا أحد يتعلم بمفرده كيف يعرف الزمن ؛ فللذكرى شروطها الاجتماعية التي تجعل من العبث اللامجدي كل بحث حول نشأة تصور الزمن ، أو حول نشأة تصوّراتنا جمعاء . فالإنسان المنعزل الوحيد تجريد ؛ والطفل المنعزل الوحيد مستحيل بيولوجياً . فكما يتعلم الطفل الكلام ، كذلك يتعلّم أن يتذكّر . وذكريات الطفل هي ما يُروى له ؛ وهي محل نقاش ومراقبة من جانب الوسط الأسري ؛ وذاك لأن التفكير المشترك في الأسرة يكاد ينحصر في مراجعة الماضي ؛ وتاريخ كل فرد يجري وضعه هناك من جانب الأخوة الكبار ، ودائماً يُضمّ إلى الروزنامة المشتركة . ولنعاين في هذا المجال كيف أن الأعياد ، الأسرية أو العامة ، هي في آنٍ معاً مراكز للذكرى واحتفالات تكريمية . تُرى ، فماذا يمكن أن تكون الذكريات الفردية ، دون وجود هذه الذكريات المشتركة ؟ وليس هذا هو السؤال الأول . بل يجب أن نسأل : تُرى ، ماذا يمكن أن تكون الإدراكات الفردية ، دون وجود الإدراكات المشتركة ؟ فإدراكاتنا الأولى تُشرح وتوصف لنا . وكذلك ذكرياتنا فهي تُروى علينا . وإنما محور

المحادثات ضبط المرء لذكرياته بالاستعانة بذكريات الآخرين . وفي هذا الجانب أيضاً ، تقوم الحياة المشتركة بتأسيس أركان الحياة الفردية . ومن كان وحيداً يكون معرضاً لإضاعة نفسه بالذات ، ألا وذكرياتنا جميعها نفكر فيها دائماً بشهودها الحاضرين وبشهاداتهم ، ناهيك أنها غالباً ما يتم إحياؤها بشهادات حقيقية ؛ ولا يمكن لأحد أن يحكم على مدى التشوهات الحاصلة في الذكريات التي لا تواتيه الفرصة للتحدث عنها . لكن ، فليجرب أن يرى مجدداً ، بعين الفكر ، مدينة عاش فيها قبل عشرين عاماً ، فلا يمكنه أن يعثر على نفسه إلا بالعثور على الأشياء ؛ وإذا لم يكن لتلك الأشياء بعد من وجود ، فلن يمكنه أن يعثر على نفسه إلا بالعثور على الأشخاص الذين عرفوا تلك الأشياء . إذ ، بمجرّد تعرّف الآخرين عليّ ، يصبح لـ " أنا " . . ي مقومات كثيرة لدعمها . وإنما عن طريق هذا التعاون بين الذكريات تجد الذكريات الحميمة والسرية مكاناً لها أيضاً . يجب القول أخيراً ، بالرجوع إلى الفكرة الأولى في هذا الفصل ، بأن مستقبل كل فرد منا يمكن التنبؤ به بصورة رئيسية عن طريق الهيكلية الاجتماعية . والمشروع ، والعهد الذي يأخذه المرء على نفسه ، واختيار مهنة ما ، هي أمور لا يمكن حدوثها إلا في مجتمع يوفر وسائل ، وسبلاً ، وأمثلة . لا يمكن للإرادة أن تكون في الفراغ . وكل تفكير لدى الطفل يقفز نحو المستقبل ، نحو المهنة ، والوظيفة ، والطقس الاحتفالي . ولذا فالرأي العام جيد أيضاً كشاهد يذكّرنا دائماً بالوعود التي قطعناها .

الأعلى والأدنى

(١٣ أغسطس / آب ١٩٢٠)

هناك عدد كبير من البشر يحملون في داخلهم جانباً سامياً ومستنيراً ، لا يفعل أي شيء . وهكذا ، فحبُّ العدالة كامن تقريباً في نفوس الجميع ، يتم تصريفه بالحكم على الآخرين ، لكنه يتراجع حيال المنفعة وحيال الأهواء . ويقولون عن الذي لا يجعل من البحث عن الجمال مهنة يحترفها بأنه " هاو " ؛ وهذه كلمة لا تؤخذ أبداً المأخذ الحسن . وكذلك ، لا ينقصنا هواة العدالة ، الذين يخرجون عن المنطق السليم في ما يتعلق بقضيتهم بالذات . ألا فما تفعل الإنسانية لمواجهة النزعات الحربية ؟ ليست الإنسانية مدمّرة ، لكنها ضعيفة . الأعلى في كياننا ضعيف ؛ هو عن الأرض أبعد مما يجب . حتى أن القضية لا تعود مجرد قضية إعطاء الفضائل لأولئك الذين نريد تعليمهم ، وإنما القضية بالدرجة الأولى ترسيخ تلك الفضائل فيهم . كأننا نعني بذلك خفضها والانتقاص منها . مما لا شك فيه أن العدالة موجودة لدى القاضي أكثر مما هي لدى الأخلاقي ؛ هي أقل صفاء ، والحق يقال ، لكنها أكثر فعالية ؛ والرقة الإنسانية لدى الطبيب لا تعود مالكة لترف الرحمة المرهفة ، المتحسسة لأبسط الآلام ؛ غير أن مهنة الطب تعطي لتلك الإنسانية القوة والدقة . فليست الشفقة هي التي تدفع الطبيب ليقتطع من أوقات وجباته ونومه ، وإنما هي المعرفة العملية . وحتى عندما تشير عليه الإنسانية ، المستنيرة بالحكمة ، أن يخلد إلى الراحة ، فإن الجرح ، والعمل الصعب ، وتصور إمكانية

القيام بعمل ما ، يكون لها عليه قدرة أكبر بكثير من قدرة أفكار مجرّدة ، دون أي قوام تقريباً .

وصحيح أيضاً ما كان يؤكده أفلاطون بقوة من أن النفس يجب أن تنفصل عن الجسد ، بمعنى أن الرأي يجب أن يظلّ حراً ، لا أن يؤخذ في الوظيفة أو في المهنة ؛ ختاماً ، الشخص الحق يجب أن يكون متجرّداً ، وأن يجعل من الأدنى أداة له ؛ لأن الإنسان لا يكون إنساناً كاملاً بالانغلاق داخل الوظيفة وتأليهها ، دون أن يرى ما هو أبعد . لكن يخيل إليّ أنه ليس من اليسير الارتقاء إلى ذلك المدى دون مراتب ووسائل وسيطة ؛ ويبدو ، كما كان رأي كونت ، بأن أسمى استعداداتنا تصاب بفقر الدم ، بمعنى ما ، إذا لم تستمد ذلك الدم من الوظيفة الأدنى المجاورة ؛ لأن حميّة المحامي يتدفق فيها الدم بكل قوة ؛ وأما الرغبة في رؤية العدل يسود على الأرض بأكملها فتعاني من فقر الدم بالقياس إلى تلك الحميّة . وإنما يستمد " عدو " الشعب من مستوى مسؤولياته العامة قدرته على التغلب على الرأي العام ؛ وهنا ، يتم اتحاد النفس مع الجسد ، لكن كم من النفوس الخفيفة المتطايرة في مهب الريح ! ألا فالوظيفة هي التي تعطي الأفكار وزنها ، وفي الوقت نفسه تنفخ فيها الحياة ؛ وعن هذا الطريق تقوم الأفكار بتأثيراتها النافعة والمتواصلة . وهكذا نجد في الوكيل القضائي ديرفيل لدى بلزاك ، رأياً متحرراً في كل الأمور ، لكن السمو لديه مشتت ، غامض الملامح ؛ وهذه المنعكسات السلوكية تغير في النظام الإنساني أكثر مما نظن ؛ لكنها توفر على وجه الخصوص ثقة الفرد بنفسه ، بالشخصية المرتبطة به ارتباطاً وثيقاً . وغالباً ما نجد في إنسان ما العلامة المرئية لقدرة تفتقر إلى الآثار التي يجب أن تنجم عنها . والعبقري الذي قد يغيّر أموراً كثيرة في العالم غالباً ما تكون لديه طفولة زائدة ، ورسوخاً أقل .

هذه الملاحظات تجعلنا نتبين بقوة ضرورة إيجاد مراتب إذا أردنا التقاط حقيقة الإنسان . ذاك لأن الحياة الإنسانية لا تكون أبداً خليطاً من الانطباعات ،

والذكريات ، والتصورات ، كما يرتسم أمامنا من خلال اللوحة البسيكولوجية المضطربة الملامح ؛ وإنما هي بالأحرى حركات متصاعدة يتم من خلالها التحكم بالحدث العابر وإصدار الحكم عليه ؛ ولا يتم ذلك من الأعلى الكافي دائماً ، بل يتم من الأعلى الزائد . كل إنسان يعيد تصحيح نفسه في كل لحظة ؛ والحكمة الحقيقية تصحّح نفسها أبطأ ، لتقوم بالارتفاع بكل ما في كيان الإنسان . غير أن هاوي الحكمة يشيل برأسه أعلى مما يجب . هناك إذن مرتبة وسيطة بين الحياة الروائية التخيلية ، التي هي المظهر البسيكولوجي ، وبين الشخصية الأخلاقية . فاقبضوا على هذه المرتبة ولا تدعوها تفوتكم ؛ وتناولوا الإنسان عند ذلك المعْبَر ، وهو يمسك بين يديه أدواته وقدراته الفعلية ؛ في هذا ما يُثقل عليه ، لكنه يعطيه الرسوخ . لم يتنازل مارك أوريل ، لكن الإنسان غالباً ما يتنازل ، من لحظة للحظة ، عن السلطة الملكية الطفيفة التي وُهِبها ؛ وفي هذا من التجريد والسخرية كما كان لدى سينيك من هاتين الخصلتين عندما تظاهر بالفقر في زاوية مهملة من بساتينه التي كانت أجمل بساتين روما . ولا يجوز بالتالي أن نتسرع في اندفاعنا ؛ والعيب في التربية ، بمعناها المتداول ، ذلك المعنى الغني والمليء ، يتجلى بالازدراء المبكر للعلاقات الاجتماعية وللوجاهات الاجتماعية . ويتجلى هذا العيب لدى روسو ، الذي إذا ما استثنينا فترة قصيرة في فينيسيا ، لم يعرف أبداً وضعاً اجتماعياً يتناسب مع قدراته الحقيقية . ولهذا السبب نرى كيف يقع دائماً بين يدي مزاجيته : فالارتفاع نحو الأعلى ، أمرٌ فيه منفعة ، إنما للآخرين وليس له ؛ والجانب السامي من نفسه لم يتمكن أبداً من الحلول في ذلك الجسد البائس . ألا ، ويخيّل إليّ ، بالرجوع إلى الحياة التي عاشها في فينيسيا ، أن الوظيفة قد أمكنها ضبط مزاجيته وتنظيمها ؛ ومن الصحيح بأن ذلك الحكيم ، الذي اقترب بعمله من ذاته أكثر فأكثر ، قد أصبح مستشاراً فائق العلم والتأني ، مفيداً نافعاً في عصره ، ومنسياً في يومنا الحاضر .

حـول الشـرف

(١٤ أغسطس / آب ١٩٢٠)

غالباً ما يُساء فهم الشرف ، وذاك لأن حركة التفكير ترتفع دون حيطة من تهاويم الشباب إلى الواجب الخالص . فكأننا بذلك ننظر إلى المجتمع كحادث عرضي لدى الإنسان ، أو أنه مجرد تشكيل له امتيازاته ومنافعه . أما الحقيقة ، فهي أن الإنسان اجتماعي بشكل حميم ، وبالولادة ، وبالاحتياجات الأولى ، باللغة ، واكتساب الحِرف والأعمال ، والفنون والأفكار . وعندما يسيطر عليه الصف ، أو الحرفة ، أو الوظيفة ، فهو حينذاك تعتمل لديه عواطف متدفقة مرتبطة بالرأي العام لدى الآخرين . وليست فقط ، كما يريد نفر أن يقول أحياناً ، بالعواطف المرتبطة بالمصلحة ، والتي تجعل المرء في خشية من اللوم ، والاحتقار ، والشعور بالعار ، بالطريقة نفسها التي يخشى المرء فيها من الفقر . فتلك الخشية من النتائج اللاحقة ليست هي الشرف ؛ وهنا لا بد لنا من الانتباه إلى وجود درجات متفاوتة .

أما النفاق فيقوم على أننا نتخوّف من رأي الآخرين ، مع الاحتفاظ بالحرية التامة حيال أفكارنا الخالصة التي نكتمها ولا نصرح بها ، وحيال الأفعال التي نحسن إخفاءها . وإني لأرى هنا أيضاً درجتين تساعدان على التقاط التفاوتات ؛ إذ من الممكن ألا نخشى إلا العقوبة ، بكل بساطة ؛ غير أننا غالباً ما نخفي أفكارنا وأفعالنا ، لأننا لا نريد لأحد أن يقلّدها ؛ وهذه الحيطة بدورها يمكن أن تنجم عن سببين اثنين : فإما ، كما هو حال اللص الشريف ، أتفهّم بأن اللصوصية قد تفقد

امتيازاتها لو فكر جميع الناس باحترافها ؛ وإما أنني لا أريد للآخرين ، وخاصة الشباب بينهم ، أن ينجرفوا في تيار الأهواء التي أعاني منها والتي لا يمكنني التخلص منها . في جميع الأحوال ، يظل النفاق الخالص أندر مما نظنّ ؛ والشرف هو الأقوى .

الاحترام الإنساني في مرتبة عليا ، ولم يكن بالإمكان إعطاء هذه الكلمة الجميلة معناها المستهجن إلا من خلال الانضباط القاسي لدى الكاثوليك ؛ لكن تأملوا جيداً في الكلمات ؛ إنها أقوى من الاستخدام السائد ، ولا يدان الاحترام البشري إلا بالرجوع إلى الاحترام الإلهي . فهذا الشعور طبيعي وذو قوة وهو يبعدك عن القيام بما يثير الفضيحة ، بصورة رئيسية في الاحتفالات الدينية أو بما يخص مجاملات التهذيب . وهذا الجبن مشرّف لأنه يمنعنا من تجريح الآخرين مخافة الوقوع في الملامة أو حتى الاستغراب المتولّد عن الشعور بالمفاجأة . وما يميز الاحترام عن النفاق لدى الناس هو أن المنافق يضمر في سريرته الاحتقار . أما الاحترام فيولد من التواجه بين شعورين صادقين ، إنسانيين ، محمودين . فنحن على سبيل المثال لا نستطيع التعبير عن الاحتقار إزاء شقي يحظى بالتكريم ، مراعاة لأولئك الذين يكرّمونه بسريرة صافية ، أو لمجرد تجنب الاضطراب الذي يمكن أن يصيب أولئك المخدوعين إذا ما كشف القناع عن حقيقة ذلك الشقي . ويمكننا أن نمضي إلى ما هو أعمق في هذا المجال ، لنتساءل عما إذا لن يكون الشر أدهى وأعظم ، لو وصل الأمر بالعديد من الضعفاء وسريعي التصديق إلى التشكك المفرط بالفضيلة ، جرّاء مثل ذلك الكشف ، إذ أن الناس مندفعون في مواقفهم ، كما قطيع الأغنام ، ولا أستطيع تحقيق الشفاء لهم من خطأ ، خاصة في وسط عام وعلى رؤوس الأشهاد ، دون أن أوقعهم في خطأ آخر . هنا ، تفعل فعلها المشاعر السياسية ، الفائقة التأثير على الإنسان الناضج ، والتي تجعله جاهزاً في أغلب الأحيان لتحويل وجهة الشباب المتفجر بالحماس . والناس الذين يعتبر غوته أرفع أنموذج عنهم ، يتطلعون دائماً إلى العواقب غير المباشرة والتي يستحيل حسابها

لإرادة مستقيمة لا تعرف المجاملات . باختصار ، للحيطة والتأني درجات ، وبعضها مشرِّف .

والشرف هو الشعور الداخلي بالعقوبات الخارجية . إنه يترجم استحساننا ومحبتنا لتلك القوى الاجتماعية التي تحكم علينا والتي قد تفرض قيودها علينا ؛ وهكذا ، فنحن نذهب إلى ما هو أبعد من تلك القيود ، بل ونمارسها حتى على أنفسنا ، دون أن ننتظر القرار الحاسم من الرأي العام . إننا نحاكم أنفسنا كما نفترض بأن المجتمع كان سيحاكمنا لو كان يعلم . وحتى لو لم يشأ المجتمع تصديقنا، سيّان ؛ فالمجتمع لا يستطيع منح الغفران لأنه لا يعرف البواعث . وكذلك فللشرف القدرة على إدانة من برّأته محكمة الشرف ؛ إذ أنه قد استسلم للخوف ، وهو يعلم ذلك حق العلم ؛ لكنه أحياناً الوحيد الذي يعرف ذلك . وهذا ما يجعل الشرف جاراً للضمير ، ويعذّبنا في السرّ والعزلة . وإذا ما شعر المرء بأنه أخلّ بالشرف فإنه يحكم على نفسه بأنه لا يعود بإمكانه العيش في المجتمع دون نفاق . والشعور الصحيح في هذا المقام يقوم على أن الشهرة إذا ما احتُقرت ، فإن الوظيفة تكون تهريجاً . واقرؤوا مشهد اللوحات في مسرحية " هرناني " ، حيث تكفي المباشرة بالكلام . وتقودنا هذه المشاعر ذات الهواجس إلى إنقاذ المظاهر على تلك الصورة ، حتى عندما تكون الفضيلة طاهرة الذيل ، إذ قد تكون الفضيلة موضع احتقار ؛ وفي هذا اضطراب كبير ، فوضى عظيمة . وبالتعمق أكثر فأكثر ، نكون قد تركنا الفضيلة عزلاء ، وحيدة ؛ ونكون قد جردناها من مساعدات ربما أنها لا تستطيع الاستغناء عنها . وهذه الفكرة صائبة ؛ وتشهد التجربة على صحتها بما فيه الكفاية . فمن الخطر اعتياد المرء على الاحتقار . وإذا كانوا يقولون ، للنبل أصوله ، فإنما يعنون من ذلك : هنيئاً لمن ينتظر منه الرأي العام الكثير ، لمن يحاكمه الرأي العام بيقظة وقسوة . إذن ، فالدور الذي يقوم به المرء ، ويقوم به بكل صدق، هو ما يفيض على الآخرين بأفضاله .

الأفكار والأعمار

حـول التـربيـة

هذه الكلمـة الجميلة مفـعـمة بالمعاني . لاحظوا أنها إنما تعبّـر بالأحـرى عن حركة أكثر مما تعبّر عن حالة مكتسبة راسخة . درجات الأعمار مشمولة فيها ضمناً، وهذا يشتمل على ما هو قطعي ؛ لكني أميل لأرى هنا أيضاً الأعمار الباقية ، وتلك الدرجات من الكينونة التي تلحق بالإنسان ؛ إذ أن أفكار الطاعن في السن ، إن كان لديه من أفكار ، بدايتها دائماً حركة من حركات الشباب ؛ لكنها في أغلب الأحيان لا تعمّـر إلا بعمر التفاتة عابرة ، تنضج أثناءها لتصبح من ثم ذاوية ، ذابلة . في الإنسان الناضج ، تكون قد انتهت وأصبحت معتدلة ؛ أما في المراهق فهي فوّارة متدفقة ، وبالكاد يسيطر عليها الانضباط الخارجي ؛ كما أنها في الطفل ، جامحة مشاكسة وسرعان ما تبدو وكأنها خارجة عنه . وكما يفرض الواجب الأخذ بيد الطفل وصولاً إلى نضجه ، فكذلك الإنسان ، في جميع مراحل العمر ، يجب عليه أن يصل بأفكاره إلى نضجها ؛ ويقال عنه إنه يفتقر إلى التربية تحديداً إذا ما أظهر أفكاراً طفولية . التربية إذن هي دائماً قَيْد الفعل ؛ ليس كمجرد حيازة واكتساب ، وإنما كانتصار يتحقق في كل آن . حتى لو كنا نريد تقليص التربية إلى علم الكياسات ، فيمكننا القول دون مجانبة الصواب بأن الإنسان ذا التربية الحسنة هو وحده الذي قد يكون قادراً على الابتكار . لأن الطفل تجرفه الحركة الأولى ، بينما لا يستطيع المراهق الاسترسال مع الشعور دون بعض الحياء ؛ لكن الإنسان الحق يصل بهذه الإيحاءات إلى النضج ، بحيث ما تزال تتجلى فيها لطافة الطفولة ، وحرارة المراهقة ، إنما منضبطة بالرأي ، وهذا ما يُستكمل به التهذيب الحق . أما من

يتحرك وفق القواعد فما هو إلا من بعض الأدعياء ، حتى لو كان تلقى دروسه على يد أفضل أستاذ للرقص . التهذيب بالتالي فضيلة عظيمة ونادرة الوجود ؛ وهي قَيْد الفعل ، على قول أرسطو ، أي أنها مبتكرة . ولا شيء يكون فاتناً مرتين .

وإذا ما أردنا أن نتوسع إلى ما هو بصدد هذا التصوّر لـ " التهذيب " ، فهذا في متناول اليد ؛ إلى أسمى درجات الـ " Esprit" بالمعنيين اللذين تشير إليهما تلك المفردة : (معنى الروح ، ومعنى الفكر) . وعندما نقول بعدم وجود تفكير دون فكر ، فهذا يعني وجود " التهذيب " دائماً في فن التفكير . ومن السهولة بمكان أن نفهم بأن الأسباب ذاتها ، أسباب المزاج ، أو الطبع ، أو الحرفة ، التي تجعلنا رهن الفجاجة ، أو الجبن ، أو الشراسة ، تؤدي بنا بالطريقة ذاتها إلى العجلة ، إلى الجفاف ، إلى الآلية ، تلك النقائص اللاصقة بالفكر . وإذا كان تعليم الكياسات ، كما نرى ، لا يكفي لفن الحياة ، فإن التعليم بمعناه الأشمل لا يكفي هو الآخر لتشكيل الرأي وإصدار الأحكام . وما من أحد إلا وتبيّن له بأن أفكار كاتب ما لا يمكن فصلها أبداً عن هذه الصيغة الموفّقة المترجمة في الوقت ذاته للمزاج ، والطبع ، وفي نهاية المطاف ، لطبيعة الإنسان بأكملها . إن المختصرات في هذا المجال تضلّلنا حتى أكثر مما نظن ؛ إذ هي تفتقر حتماً لشيء ما ؛ بل أعتقد أنها تفتقر لكل شيء . فالأفكار الموجزة المختصرة تفقد حتى صفتها كأفكار . وهذا ما يفسر ما نشاهده من اندثارٍ ، كما لو بقضاءٍ داخلي ساحق ، لتلك التركيبات الجبرية التي تقوم عليها اللغات المركّبة المصطنعة للتعبير عن جميع التصورات الممكنة ، باختصار ودونما التباس ؛ على أن الالتباس هو روح اللغات الطبيعية ، مثلما تشير إليه مفردتا " التربية " و " الفكر " في ما سبق من سطور . يجب الآن رؤية الأسباب ، وبالخط العريض بادئ ذي بدء ؛ وهذا ما يبدأ قانون الأعمار بإضاءته لنا دون تأخير .

ضرورة أن يكون المرء طفلاً في البداية ، وأن يعبر الأعمار المتلاحقة دون أن يخرج عن ذاته ، فيها تعريف كافٍ للتربية . إذ ما يُفيد في شيء أن نعرف إن كنا لم

نبدأ بالجهل ؛ بل من اللازم أن يكون الجهل شيئا ذا قيمة . كان الرواقي يقول : " لا تكن مستقيماً بل كن مقوَّماً " . وبالتالي ، إذا لم تكن الفكرة الصحيحة تقويماً وتصويباً لفكرة مغلوطة ، أعني بالمغلوطة يافعة ، ومشوشة ، وغنية ، فالفكرة الصحيحة لن تنتسب إليّ إلا كانتساب قبعة ما ، أو ثوب ما . ولهذا السبب لا يستطيع " العلم " أن يمدّن ويحضّر ؛ غير أن هذه الطريقة في الحديث لا تعبر سوى عن الآثار الناتجة ؛ ومن الأفضل القول بأن " العلم " الذي لا يمدّن ولا يحضّر ليس علماً على الإطلاق . ناهيك أنّ نسق الأعمار لا يمكن الرجوع فيه إلى الوراء ؛ فيمكننا أن نراهن إذن على أن هذا القانون ينظم جميع تحركات الفكر . وكما يخرج الإنسان الناضج من الطفل ، يجب أن تخرج الفكرة من الطبيعة . ولم يصبح الجبر علماً إلا لدى المخترع ؛ أما لدى الآخرين فهو لا يعدو أن يكون آلة . يمكننا التخمين بأن هذا المبدأ ينطبق على الأمور جميعها ، وبأن التفكير الصحيح ينحو تماماً منحى الأعمار ؛ ومن الأسفل إلى الأعلى دائماً وأبداً ، في أدنى المحاكمات العقلية شأناً . أما من الأعلى إلى الأسفل ، فهذا غير وارد على الإطلاق . ذلك أن التاج لا يصنع الملك .

حول الطبقات

ما دامت الوظيفة هي التي تعطي تصورات ، وهي التي تتحكم في الرأي العام ، وكذلك في الرأي العام لدينا حول الرأي العام ، لا ضرورة لإبداء الدهشة إذا ما رأينا عامل الحفر الذي يشرب الأنخاب ويسكر والكاتب بالعدل الذي يحضر القدّاس ، فهذان نوعان مختلفان . والتقسيم الرئيسي الذي يخضعان له هو توزّعهما إلى بروليتاريين وبورجوازيين . ويمكن تحديد تنوعات أخرى وفقاً للمبدأ ذاته . إذ البورجوازي يكون بورجوازياً تاماً عندما يعيش على الرأي العام فقط ، كما هي حال رجل الدين أو الكاتب بالعدل ؛ فهؤلاء البشر يصبحون لا شيء حين لا يعود أحد يؤمن بهم . على أن التاجر هو دون شك في الطرف الأقصى المقابل من البورجوازية لأن لنوعية ما يبيع أهمية كبرى ؛ ولا يجعل التهذيب الخمر زكياً . الطبيب أكثر بورجوازية من الجراح ، لأن المهارة العملية مسيطرة لدى الثاني ، أما الأول فالسيطرة لديه هي للمهارة الكلامية . أما المهندس فأقل بورجوازية كلما كان أكثر علماً ، لأن سلطته ترتبط حينذاك بالتأثير الذي يخلّفه في الأشياء ؛ وفي وزارة من الوزارات ، يكون مدير الذاتية أكثر بورجوازية من المدير المالي . والمعلم بورجوازي بمقدار ما يسيطر لديه فن التعليم على العلم ؛ وحالما يعلم أشياء لا يعلمها آخرون ، كالجبر أو الكيمياء ، يصبح بعلمه ذاك بروليتارياً ، وسرعان ما يُشاهد هذا من خلال آلاف السمات . الطباخ أقل بورجوازية من خادم الغرف في الفندق ، لأن الطباخ لا حاجة له للتهذيب . البوّاب بورجوازي ، أما منظّف البلاط

فهو بروليتاري . وهنا غالبا ما تكون زوجة الحاجب هي البورجوازي ؛ أما زوجها فيكون بروليتارياً ، لأن علاقته ليست مع البشر وإنما مع السلالم .

وأرى حالة وسطى لافتة ، هي حالة مدرّب الحيوانات ، إنه بروليتاري من خلال النتائج ، لكنه بورجوازي قليلاً بالنظر إلى الوسائل ؛ إذ أن تدريب حيوان ما يتم بالتهديد والإقناع ، أي بنوع من التهذيب ، أو قلة التهذيب ، لكنه دائماً في حالة تظاهر . وهاكم عربجي شحن ، يتكلم بخشونة كبيرة مع حصانيه ، نظرته المهددة نظرة مساعد في الجيش ، إنه بكل تأكيد يوظّف غضبه كوسيلة ، وهو ما لا نلتقي به أبداً في المهن اليدوية ، لأن الحديد والخشب لا يحسّان بالغضب . استناداً إلى هذا ، يكون العربجي أقرب إلى البورجوازي من سائق السيارة . ويصل هذا الفرق إلى التفاصيل الجزئية ؛ لأن السائق يشبه عاملاً وضع في موقع موفق ، أما العربجي فهو أشبه ما يكون ببورجوازي سيئ الهندام . بل أعتقد أيضاً بأن عادة الكلام مع الحيوانات تطبع صنفاً من البشر ، باستخدام السلطة المطلقة الملطّفة بالمودة. وهذه السمة من بعض ما يؤثّر في الفلاح ، لكنها ليست السمة الوحيدة . فربّ المزرعة يصدر الأوامر لعائلته وخدّامه ؛ هو بورجوازي في هذا الجانب . وكذلك حاله في السوق ، إذ له تأثير أكبر على المشتري بتهذيبه ، مما له على المنتوجات بعمله . وهذا ما يميّز على وجه الخصوص الفلاح عن البروليتاري ، إذ أن المنتوجات الزراعية ترتبط بالعمل أقل مما ترتبط بالعوامل الخارجية ؛ فهناك سنوات يجود فيها القمح ، ويمرض فيها الدجاج ، وتتعفّن فيها الأعلاف ؛ ويصدق الأمر نفسه على النبيذ . بالمقابل ، فالإسكافي الماهر يصنع دائماً أحذية جميلة . والعامل الفني الجيد يصنع دائماً ساعة جميلة . فهؤلاء مستندهم بالتالي مهارتهم العملية ولا يبالون بما سوى ذلك ؛ لا تحتال الأشياء عليهم ولا ترتب لهم المقالب . غير أن الفلاح أكثر خشية وتخوفاً ؛ ولا يستطيع الاعتماد على نفسه إلا من بعد أخذ مرور السنين الطويلة بعين الاعتبار ، وهو ما يكشف عنه بشكل محسوس الادخار أو

شراء حقول جديدة . أما الفصول التي هو بين يديها فتخلق في نفسه الرجاء والخشية . وفي الوقت ذاته ، فعدم استقرار الجو وما فيه من تقلبات خبيثة ، تجعله في حالة من الحذر ، وهو لا يريد أبداً أن يُحكم عليه من خلال ما يملك . وهكذا فحاجته لبيع ما لديه ، وكذلك حاجته للزمن الكافي كي يدفع ، تجعله مرتبطاً بالآخرين وتحت رحمتهم . ناهيك أن العادة المكتسبة لديه ، عادة تأمين نفسه في السنوات الخصبة لمواجهة سنوات الجدب ، تجعله متبصّراً يحسب حساب المستقبل ومتكتماً في الوقت نفسه ؛ إنه لا يجيب أبداً على أي شيء ؛ بالمقابل ، فالبروليتاري لديه الثقة بنفسه ، حالما يتقن مهنة صعبة . نعم ، ولا شيء من التأمل الروحاني لدى البروليتاري ؛ أما لدى الفلاح ، فالإحساس بالقوى الغيبية التي لا تقهر من شأنه أن يتفاقم بالتجربة ، وهذا النوع من الوسواس هو الذي يحافظ على التهذيب الريفي ، ذي الطابع الديني دائماً وأبداً ، وهو بالتالي أكثر انتظاماً وأكثر نبلاً من تهذيب المحامي والتاجر ، ذلك التهذيب الذي ليس سوى سلعة .

سوف نجد في الطبقة البروليتارية دون عناء بعض الدرجات أيضاً ، بالرجوع إلى الأسباب نفسها . إذ أن العامل اليدوي الذي لا يملك إلا قوة عمله ، هو مرتهن للآخرين أكثر مما هو عليه العامل الفني الماهر . فالبستاني همّه نيل الرضى والإعجاب ؛ وكذلك عامل القرية الذي هو في الوقت ذاته تاجر ، والذي يراعي ، من بين ما يراعي ، فن الإقناع ، بل وحتى الغش عند الحاجة . حتى العامل الذي يعمل تحت إمرة معلم يشترك في هذا مع البورجوازية ؛ إنه يحتفظ ببعضٍ مما لدى التاجر من حيطة وحذر . أما البروليتاري الحق فهو الذي يرتكز على مهنة صعبة ، ولا يتعامل إلا مع مراقب غالباً ما يكون أقل مهارة منه ، وهو بروليتاري مثله ؛ حينذاك ، يكون للمنتجات الكلمة الفصل . والمستخدم ، الذي يقبض دائماً أجراً أقل من العامل ، هو رغم هذا بورجوازي ، لانشغال باله بنيل رضى رئيسه ونيل رضى البائع . وغالباً ما يكون ازدهار مشروع ما بهمّة رجلين اثنين : الأول ، عالم

بالأمـر وهو الذي يبني ، والثـاني ، بارع متـمرّس بالإقناع ، وهو الذي يبيـع ؛ أمـا الأول ، فيصبح نوعاً من " البروليتاري الكبير " ، خاصة إذا كان لا يمارس أية سلطة على الناس ؛ وأما الثاني ، الذي غالباً ما تكون ثقافته أقل ، فيصبح بورجوازياً في أبسط تصرفاته . والنظرة التي تحسب ما يمكن أن يُصنع من لوح من الخشب ليست هي نفسها النظرة التي تقدّر ما يمكن أن نستخلص من إنسان ما .

حـول المهنـة

بالتـأكيـد ، الحياة وفق " الرأي العام " وفي " الرأي العـام " ، كما الحياة في وسط يُستمد منه الغذاء والتنفس ، واتخاذ " مثل أعلى " حـول الذات قوامه الفكرة التي لدى الآخـرين عنا ، ليست هي الحياة الأخلاقـية بالمعنى العـميق للكلمة . فهناك استغلال للاحتفالات وللحياة العامة ينزل بـ " الفضيلة " إلى درَكِ المظاهر . وهنا مكمن ومنبع أعظم شر يعاني منه بنو البشر ، أعني به الحرب ؛ يجب أن يظل الداخل حراً ، وأن يقود ، إذا أمكنه ذلك ، الجوقة الصاخبة . لنقل بأن هذه الحياة الخارجية والاجتماعية بالخالص ، تلك " الكوميديا " بكل معنى الكلمة ، يجب التغلب عليها ؛ وها هم " حكماء أيام زمان " يقدمون جميعهم إلينا تلك السمة التي تجعلهم في لحظة من اللحظات يسلكون درب التوحّش ، ليصبحوا مواطنين في العالم . ونجد كمال هذا الهرب لدى سقراط ، الذي رفض الفرار من الحبس ، كما نجده في عصرنا لدى تولستوي . غير أن الأسباب المجتمعة ها هنا ، والمتوافقة مع التجربة البشرية ، تسمح أن نقول بأن السعي إلى المقاومة والتغلب ، يلزمه بادئ الأمر القبول ، وأن قوة الإنسان الشريف ، الذي سوف يحكم في اللحظة الحرجة على الهياج الشعبي ، إنما يتحضّر في الحياة العامة ، ضمن نطاق مسؤولية ، وظيفة، مهنة . إن الإنسان يسمو به المجتمع . كان مارك أوريل يقبل كثيراً . وقد اجتاز تولستوي جميع الأعمار ، واستمد من كل عمر بعض قوته الرافضة . وإذا لم تتيسّر هذه الاختبارات والتجارب ، فإن الشخصية تكاد تسقط دائماً لتكون محض مزاج ، كما بيّن ذلك ألسست . والحال مع " الشخصية " الأخلاقية هو كالحال مع

" الأصالة " الجمالية ؛ إذ يجب في البداية تعلم القبول والتقليد ، هذا إذا لم نشأ أن ننتهي مع القبول والتقليد . فلورشة التعليم مرحلتها العمرية ، وكثير من الشبان يقولون " لا " قبل أن يعلموا . وهذا ما يجعل من الإنسان الشريف طريدة نادرة وذات وبر مختلط . وهكذا فالكونت موسكا ، في رواية " راهبة دير بارم " ، غالباً ما يُساء الحكم عليه لأنه يقبل كثيراً ؛ لكنه يتغلب ويقاوم في كل دقيقة ؛ وهذا دون شك ما يفسر كيف أصبح مارك أوريل إمبراطوراً، وعاقب المسيحيين .

على مستوى المهنة ، الذي هو المستوى العام المشترك ، لكنه ليس بالمتدني ، يجب الحكم بإنصاف على الفضيلة المهنية ، وعلى روح الزمالة ، على " الاحترام الإنساني " ، و " الشرف " وجميع الفضائل من هذا النوع ، المطيعة والمثمرة ، والتي هي غير قابلة لتكون محتقرة بالتأكيد ، أو بالأحرى أنها لا يمكن أن تكون محتقرة إلا إذا أُخذت بدايةً من طرف فكرة صائبة عن الضعف البشري .

كان السؤال في " الرهينة " : " هل تحب مهنة الدركي هذه ؟ " وكان جواب رئيس المخفر : " أبداً ، لكن يجب على الإنسان أن يفعل ما يفعل " . هناك التزامات تفرضها المهنة ، وهي التزامات يومية لا لبس فيها . وأرى بعض الالتزامات صادرة عن الأشياء وعن الأداة ؛ كما أرى التزامات أخرى تصدر عن البشر وعن الرأي العام .

للقيام بعمل ، نعلم جيداً كيف نقوم به ، مستلزمات وفضائل . كتنظيف سلاح علاه الصدأ ، أو تناول كمان والعزف على أوتاره . خاصة إذا كانت الأداة في حالة انتظار ، لأن الأداة المألوفة توفر الارتياح والرضى التام . فالأب غرانديه لدى بلزاك يصلّح سلّمه وهو يغني . وهذا الحب للعمل ليس محض وهم خيالي . إذ أن الأداة في بادئ الأمر تدعوك إلى ما يشبه الرقص . مثال ذلك البحّار الذي تناول المجذاف أو حبل المرساة ، حتى دون أي تفكير . هذا ويصبح كلام الورشة

أوفر جودة عندما تكون الأدوات مرتبة بنظام ؛ وليس لبني البشر من صورة تعكس حقيقتهم أقوى من ذلك .

لكن للأشياء ، التي هي في تغيّر بالعمل ، بلاغتها أيضاً ، وخاصة الأرض المزروعة ، التي تحمل من الوعود بمقدار ما تقدم من مكافآت . ولا يأخذ الفلاح النتيجة لا غير بعين الاعتبار ، إنما هو ينظر إلى مشاريع ضخمة ، لا تترك له المجال كي يتأخر في الاستيقاظ . فهنا ينهض حب التملّك ، لأن الملكية هي وحدها التي تهب المنظور الرحب المعزّز بالأعمال ، والتغيرات ، والاستصلاحات . وإنما يتطابق الشعور الإنساني الأقوى ، دون شك ، مع السيطرة الأكبر والأهم . ألا ولا راحة على الإطلاق لهذا الشاعر . فمنظر الحقول المزروعة بصورة سيئة أو المليئة بالأعشاب المتكاثفة منظر يترك في نفس الفلاح شعوراً بالألم . تماماً كما ينطبق على كل عمل في بدايته ؛ ولكن عمل الفلاح من خصوصياته أنه دون نهاية . وها هي الفصول تجدد نداء الشيء والأداة .

يُضاف إلى هذا دائماً التفكير بأن أناساً آخرين ينتظرون ، ويعتمدون على العامل . إذا كان الآخرون ينتظرون مني أمراً ، فهذا يشدّني ويجعلني في يقظة . وانسجاماً مع المبادئ ، فالفكرة الأقوى ليست هنا الأرفع شأناً ، تخوفاً من أن عمل الآخرين سوف يصبح أكثر مشقة إذا ما خيّبت توقعهم ؛ على العكس ، فالفكرة الملحّة المؤلمة هو أن عملي قد يقوم به آخرون ، وبكل توفيق وكفاءة . نعم ، الفكرة التي لا طاقة على تحمّلها هي أننا قد نُستبدَل وحتى يطوينا النسيان ؛ فهذا نوع من الموت . وهذا ما يسبب الألم في المرض ؛ والسلوان الحقيقي هو أن يقال لك : "نحن ننتظرك ؛ أنت لا يمكن استبدالك" . والواجب ، في نظر الأغلبية العظمى ، ليس سوى ذلك الموقع الشاغر الذي ينتظر الإنسان ، وهذا الرأي العام مرتبط بالتوقيت . فالمجد هو أن تكون موضع انتظار ؛ هتاف الاستحسان يجعله يرنّ في الأسماع ، ولكل عمل مجده .

الديـن والمهنـة

انعدام التـدين لدى البروليتـاريين تفسيره كـامن في الأسبـاب التي سـبق لنا معاينتها . وأنا هنا أفكر بالبروليتـاري الكامل ، بذاك الذي لا يرتبط في عمله إلا بالآلات ، وبالتـالي بمهـارته العـمليـة . يمكننا أن نتـفـهم جـدياً بأن صـلاة مـثل هذا الإنسـان تتوجه بصورة طبيعـية نحو نفسه بالذات . وهناك أسباب أخرى تستحق المعاينة ، وخاصـة نمط الحياة التي فرضـتها الآلة البـخارية على العمال في المصانع ، من مدن صناعية ، ومن الانفصال الحاد القاسي بين وقت الراحة ووقت العمل ، والأسر المفككة بالعـمل الصناعي ، والبيت الحـزين ، دون مـاض ودون جذور . غير أن ذلك لا يحول بين العامل وبين إمكانيـة تفـهم المذهـب الديني ، والإعـجاب به ، وأن يُنظر إليه على أنه حـقيقي ؛ فـمثل هذه النمـاذج موجـودة . ولكن يجب الاعتراف بأن مثل هذا الانضبـاط الثقافي ليس ديناً بمعنى الكلمة ، وإنما هو صنف من صنوف الفلسـفـة ، ناهيك أنه لا يحـرك مكامن الفـضـول لأمـد طويل . فـإذا ما ارتأيت بأنني يلزمني دين ، وأنني يمكن لي أن آمل منه المكاسـب الروحـيـة وطمـأنينة القلب ، فلا يـجعلني هذا متديناً . على العكس من ممارسة الخضوع والاحترام التي نجدها في وسط الأسرة الفلاحيـة ، فـهي توفـر اسـتعـداداً أفضـل للإيمان ، كـمـا أنهـا بدايةً تجعل المرء يشعر بقوة الطقـوس ، والتقـاليد ، والرأي العـام ، والسلطة . لا أحـد يستطيع أن يقول إن لـم تكن الطاقة الكهربائية ، الأسـهل نقلاً من طاقة محرك الفـحم الحـجري ، قـادرة على إعادة تأسيس الدين في تواقت مع تأسيس المشـغل الأسري والركن العائلي الحميم . ففي الركن العائلي ذاك كان مستقر أقدم الآلهة ؛

وأولئك الآلهة ، إذا فهمنا الأمر حق الفهم ، ما زالوا يحملون وسوف يحملون على الدوام الديانات ، أياً كانت تلك الديانات .

تعالوا الآن ننظر في مفارقة ماركس الذي يطيب الرجوع إليه على الدوام . فإذا افترضنا أن رافداً ما ، كما يقال عن رافد " الليس " وبعض الروافد الأخرى ، يساعد ، بسرعة مجراه وتركيب مياهه ، على نقع الكتان ، فعلى ضفافه سوف يمكن بصورة طبيعية غزل أرق الخيوط الكتانية ؛ إذن بالمغزل ، كما علّمنا بيير هامب ؛ كما أن أرق الأقمشة الكتانية سوف تُنسج على ضفافه ، وبالنول اليدوي ، لأن النول الآلي يقطع الخيط الرقيق . ها هي إذن الأسر وقد تحلّقت حول الركن العائلي ، فالرجل ينسج ، والمرأة تغزل بالمغزل ، وأيدي الصغار تفك وتربط الخيوط . إنها حياة فلاحية ، وانضباط في المشاعر ، واحترام ، وسلطة ، وفضائل أسرية ، وآلهة للركن العائلي ، ودين محافظ عليه أو مستعاد . حتى أن هذا الرافد النهري ، على ضفافه وبفضل مياهه ، يجعل الدين يترعرع أيضاً . ألا والبراهين الحقيقية على وجود الله لا نجدها لدى ديكارت ، ولا حتى لدى القديس توما .

مجتمع التجـار

يخلق التبـادل عـلاقـات قـوية . ومـعظم نـشـاط بني البـشـر يتم من خـلال مسـاومات تجارية . ورغم أن التاجر والمشتري يبدو وكأنهما يريدان خداع بعضهما بعضاً ، بتظاهر الأول بأنه غير متلهف للبيع والآخر بأنه ليس بحاجة للشراء ، فمن الخطأ كل الخطأ أن نعتبر نوعاً من السرقة تلك العملية الناجحة التي يرجو كلاهما الوصول إليها . إن السرقة والسارق تعريفهما غير المنقوص هو حيازة ما لإنسان ما دون قبـوله بذلك ، إما جـهلاً وإما إكراهاً . أمـا كل عـمليـة بيع فـهي على العكس قـوامـهـا القـبـول والموافـقـة . وهو قـبـول يكـاد يكون في كـل مكان وفق شكليـات محددة ؛ ولا أرى بأن أشد التجار خبثاً يجادلون يوماً ما في هذا الأمر . وإنما توجد الالتزامات المكتوبة بالأحرى بغية تطمين الآخرين ؛ أما التبـادل بين اثنين من بني البشر ، فيكون القبول الواضح كل الوضوح هو ختام عملية البيع . حتى المساومات الفلاحية ، وهي الأطول من نوعها ، والتي قد تثير الضحك بما فيها من وقفات مفتعلة ، ومباحثات ، وانقلابات ، هي أيضاً خاضعة لشكليات ، باعتبارها تظهر أفضل ما يكون الظهور القبول الحرّ . إنها كما لو كانت الاستعراض للعقل السليم وللحرية الكاملة .

والدعاية في الأسواق مؤسسة قديمة قِدَمَ التجارة ، وهي تبرز تعقلاً عميقاً . وعندما تُفتتح عملية المساومات التي هي مثل مزايدات غامضة يحدد فيها كل طرف على حذر تنازلاته ، يبدو الأمر وكأن كل طرف يأخذ بنصيحة الآخرين جميعاً ،

ويطمئن سلفاً إلى أنه موضع استحسان من كل إنسان عاقل . وهكذا تترك جلبة الأسواق وقعها الحسن في الأسماع . ولا يعني هذا أن الخيال لا ينصب أفخاخه هنا كما في كل مكان آخر . ومن منا لا يعرف حالات الهلع التي تدفع إما إلى البيع بأي سعر ، وإما إلى الشراء بأي سعر . لكن هذه الحوادث الطارئة ، الموصوفة غالباً ، لا يجوز أن تجعلنا ننسى استقرار الأسعار ، واطمئنان كل فرد إلى موضوع الأسعار ، فذاك هو النظام الاعتيادي . إن السوق ، رغم كل شيء ، هو أجمل مثال حول تبلور الآراء الحقّة في محفل يجتمع فيه نفر من الناس ؛ بل إنه ، إذا ما أمعنّا النظر جيداً ، المثال الوحيد في هذا المجال . إذ ، في المحافل التي لا تجتمع لغاية التجارة يتم بالأحرى تأكيد الآراء الحقيقية أو المغلوطة وليس بلورتها وجلاؤها . ولن نجد مثالاً واحداً لتاجر يرفض الاستعلام عن الأسعار عندما يمكنه ذلك ، لا لشيء إلا لميول عاطفية . فإذا أردنا تفسير المصدر الذي أخذ منه جنسنا البشري الأفكار المشتركة حول الاستقصاء ، والبحث ، ونقد الشهادات ، فيجدر بنا أن نعاين السوق ، وليس المحكمة التي ما ينفك أشباه بيلاطس يغسلون أيديهم فيها من كل مسؤولية . ألا إن البيع والشراء هم أساتذتنا للعقل السليم . ومرتكزات كل حياة " إنسانية " هي بالتالي مرتكزات اقتصادية . والأنماط عن السلام ، والعدل ، والحق هي تلك المبادلات الراضية المرضية ، الواسعة الانتشار والتي لا تلفت الانتباه إلا قليلاً ، والتي يؤوب منها البائع والشاري وقد رضي كلٌّ منهما من الآخر .

وأرى قليلاً من سوء الظن في تلك الانتقادات اللاذعة السهلة الموجهة إلى " البخلاء " ؛ فمهما كان حال أولئك المجانين المنبوذين جانباً ، علماً بأن الخيال يشوّه صورتهم دائماً ، فأنا أرى بأن الذهن المتيقظ باستمرار للادخار والاقتصاد يتوافق مع أمتن وأرسخ الفضائل ، من دأب ، وتقتير ، واعتدال ، ويقين صالح ، وتعقل ، وكرامة ، وشجاعة . وعلى العكس ، فالمسرفون ينجرفون مع الشهوات ، والآمال المجنونة ، وصنوف الهوان والذل ، والعبودية ؛ وهم

باحتقارهم الزائد للأفكار العادية ، ينزلون إلى أسفل سافلين . فالحساب هو بداية كل عقل راسخ . ولهذا تُرينا التجربة بأن التنظيمات التعاونية هي الوحيدة التي تقدم التدريب الحقيقي على الوجود السياسي . تؤدي هذه الملاحظات إلى أن نأخذ دائماً بانتباه علاقات التبادل التجاري باعتبارها تشكل هيكل كل مجتمع إنساني توسّع امتداده قليلاً . والحجة الماركسية تظل سليمة معافاة بما يخص الفكر ، وهي القائلة بأن جميع التغيرات في المجتمعات بما في ذلك المؤسسات ضمناً ، والمعتقدات ، وحتى الأفكار ، تنتج دائماً ودون استثناء من التغير الذي يطرأ على نظام الإنتاج والتبادلات . وقد أطلق على هذه المنظومة بجدارة اسم " المادية التاريخية " . لكن لا يحق لنا التسرع لنقول بأن المنافع تقود العالم ؛ فهذا العالم الإنساني أكثر مرونة في قممه العالية ، كما هي الأشجار ، وإن الشهوات والأهواء تهزه هزاً يبعث على الخوف والرهبة .

حـول روح المسـاواة

ليست الديمقراطية على الإطلاق منظومة سياسية ؛ بل قد تكون نقض كل منظومـة سيـاسيـة ، إذ " التـراتب الهـرمي " والخـضـوع الـديني المرتبط بكل تراتب هرمي ، يزيلهـمـا المجهود الديمقراطي ، الذي ، إذا ما أُخذ من هذا الجانب ، يكون دائماً فوضوياً بالعمق . على أن النقض ليس بذي بال . فالإيجابي في الديمقراطية ، وهو ليس بالشيء القليل ، هو مجهود يسعى لتنظيم الحياة الاجتماعية بأكملها وفق " عـدالة التبـادل " ، وبالتـالي ، تحت لواء فكرة " المسـاواة " . وأقـول بأن أمين السر يخضع خضوعاً دينياً للمفوض في الشرطة ، وها هو يشعر بالمهانة إذا ناله التـقـريع ، وبالغـرور إذا حظي بالاختـيـار والترقي ، أمـا الموظف المأخـوذ بالروح الديمقراطية فيريد عقداً للتبادل بينه وبين رئيسه ، ويرفض الترقي في الوظيفة بمحض الاختيار ، والعـامـــل بدوره إنما يقلّد هو أيضـاً " العـدل " المعـروف بين التـجار ، والقائم على قوانين التبـادل . وهذا تحديداً مـا لا يريد السيـاسي أبداً أن يسـمـعه ، مطالباً على العكـس باللا مـــساواة وبالخضوع دون محاسـبة . وبالتالي فـ" النظام المركنـــتيلي " - التجـاري - هو المنتصر كلمـا تحقق الـــنصر للـــروح الديمقراطيـــة في مجتمعنا .

لنعاين كيف كـان ظهور المساواة بين الأشخاص تحديداً في مجال التبادلات ، في الأزمنة الغـابرة . والقصـة الشهيرة المعنونة : " الطحـان الخالي من الهمّ " تجمع في سياقها سلسلة طويلة من الأسـاطير حيث نرى الطغيان العسكري يقف مكتوف

الأيدي أمام ضرورة دنيا لا يمكنه احتقارها . حينذاك فقط يقف الحق في وجه القوة، وتتمايز المُلكية عن التملّك . وفي هذا ، حسب قول كونت ، تحويلٌ للنظام العسكري إلى نظام صناعي يجعل السيادة أكثر فأكثر للعلاقات الاقتصادية على العلاقات السياسية فعلاً . ومن هنا كانت ولادة التصوّر المجرّد لـ " المساواة " القضائية ، السلبية شكلاً ، لكنها قوية إيجابياً ، لأنها تستند إلى البنية التحتية الاقتصادية ، التي تحمل ، ومن خلال الأسباب نفسها ، ما في الحاجة البيولوجية للمأكل ، والملبس ، والمسكن ، والتدفئة ، من مقاومة . يجب بالتالي أن نقدر بانتباه حق الملكية ذاك ، الذي هو في الوقت نفسه مولود من المبادلات وشرط لها ، كما أنه مرتبط على هذه الصورة ، في جذوره ، مع المساواة بين الأشخاص . افترضوا مثلاً أن الملكية المشتركة تعمّمت في كل مكان ، وهذا هو على أي حال وضع النظام في داخل الجيوش ، فعليكم دون تمهل أن تقولوا وداعاً لـ " العدل " المتبادل ، البسيط ، الذي له على أقل تقدير قواعده المرعيّة ، وأن ترجعوا إلى " العدل " الموزّع كهبات ، وهو دائماً استبدادي في خطواته الحاسمة ، ما دام كل شيء في نهاية المطاف ، على تخوم الطاعة والخضوع ، رهن تقدير الرئيس الأعلى مرتبة ، دون أية استعانة بتحكيم ما ، كما هي الحال عندما نرى العريّف في الجيش يصدر أوامره أو حينما يقوّم المعلّم بفحص موضوع إنشائي كتبه طالب ما .

يبدو إذن بأن النظام المركنتيلي ، الناتج بالعمق ، على قول أفلاطون ، من التحكّم الذي تمارسه الحاجات في النهاية على الأهواء ، هو الذي يرتفع فوقه بنياننا القانوني الحديث ، الذي ، للحق والحقيقة ، لم يتغير منذ الأزمنة الغابرة وإنما ازداد امتداداً وتوسعاً لا غير ، منتقلاً من تجارة الأشياء إلى شراء قوة العمل ، وباذلاً جهده عن هذا السبيل لإخضاع القدرة السياسية وحتى القدرة العسكرية ، التي لا وجود لها إلا بالعمل القسري . وبغية أن نقدر تقديراً أفضل هذا الجهد القوي ، والتحايلات التي تتقلص السلطات إلى حدودها الضيقة ، يجب أن نقدّر بأن

" العمل القسري " ، دون أمل ، دون ثقة ، دون مصداقية ، والمنفصل في النهاية عن " العدل " التبادلي ، ينحطّ من تلقاء نفسه إلى هذا الدرْك الذي لا يسمح للعامل إلا بلقمة العيش . الفائض عن تلك اللقمة يكاد يكون في خبر كان ، ومن هنا بؤس شامل يعمّ الجميع ، وتقف حياله كل سلطة مكتوفة اليدين ، عاجزة عن القيام بأي شيء . والنظام الذي لا يعمل فيه سوى العبيد يُحكم عليه بالغزو المتواصل ، ويندثر بتوسّع جبهات القتال . ألا وإننا لنرى بأن القوة المسلّحة متيقظة دائماً لحماية الملكية ، والأسواق ، والقضاة والقوانين ، من أجل تأسيس " الرصيد " والمحافظة عليه . وتلك القوانين الصارمة هي التي جعلت من الملوك تابعين لأصحاب المصارف . وهذه هي لعبة السلطات في الأزمنة جمعاء . هذا وتستمر فكرة المساواة داخل العلاقات في المجتمع ، رغم جهود الطموح ، عامة شاملة ، لأن الضرورة الأولى هي العيش . وبالتالي ، يعبّر حق " الإضراب " عن تلك الحقيقة العميقة القائلة أن لا ثروة لأحد دون توافر الإرادة الخيّرة لدى العمال . وأما تعميم الآلة فلا يعالج هذا الوضع ، بل يفعل العكس . إذ أن انتقام العبد يزداد سهولة أكثر فأكثر ويصبح أدعى للخوف ؛ لكن العبد على وجه الخصوص ليس لديه أفكار ، والصناعة لا تسير أمورها دون تلك الأفكار أو المبادرات التي تولد في كل آن بفضل الانتباه . وهكذا يموت وسوف يموت النظام الاستبدادي حالما يجد نفسه مقابل " الاقتصادي " . وليس من باب المصادفة أن يكون البروليتاريون في كل مكان حماة القانون والسلام .

حـول التفكيـر الظنـي

تفيض بنا الدهشة ، خاصة في مرحلة الشباب ، عندما نرى إنساناً ما وقد استعصى عليه تغيير رأيه رغم البراهين القوية التي لا يستطيع أن يرد عليها . وسرعان ما يقال بأن خدر الفكر ذاك يشير إلى التراخي والكسل ؛ لكنّ هذا لا يمثّل إلا نصف الحقيقة . فالإنسان يفكر أكثر مما نظن ؛ والتفكير الظني غالباً ما يكون مقصوداً ، كأنه عهد يقطعه المرء على نفسه . هو مقصود لذاته ؛ فالإنسان بطبيعته متعصب - دوغمائي - ؛ إنه لا يطيق أن يكون الفكر لديه تائهاً مشرّداً . الشك ليس في متناول الجميع ؛ بل هو يفترض وجود مركز عقيدة راسخة . الفراغ في الفكر يتيح على الفور تسرّب معتقدات غامضة ومتنافرة ، وإنه لسبب وجيه ألا يتخلى المرء بسهولة عما اعتاد أن يعتبره مؤكّداً . ومن بين جميع أصناف الأمن ، لعلّ الأمن الفكري أكثرها ضرورة ؛ خاصة وأن الفكر يكون أفضل تيقظاً ، أي أكثر انتباهاً حيال تصوراته الخاصة ، " من مزالق الروح الخبيث ، خلّصنا يا الله " . ألا ، فالشيطان هو الفكر الاعتراضي ؛ والشيطان وفق النظرة العميقة للكنيسة ، يوسوس خاصةً الأفكار المخالفة ؛ والهرطقة تُخيف أكثر مما تُخيف الخطيئة .

التفكير بعكس الرأي العام المشترك ، هو صيغة جوفاء . بل التفكير توافق مع الآخرين ؛ وذاك الذي يعمل على تصويب آراء الآخرين ، إنما يفكّر تفكيراً مشتركاً مع الجميع بشكل رئيسي . أما ديكارت ، الجسور بين بني البشر ، فيتجنب عدداً من المسائل هي تحديداً تلك التي يتأكد فيها الرأي المشترك أكثر ما يتأكد . وتفسير ذلك أن الاتفاق مع الناس هو الشرط الأول للتفكير ؛ الأول زمناً ، لأن الإنسان

يتعلّم بالتوافق مع غيره ؛ والأول أهمية أيضاً ، لأن مجمل تفكيرنا هو مثل عالم إنساني تنهض به البشرية جمعاء ؛ ويجب على المرء أن يحسّ مقاومة وتعاضد كل شيء كي يتجاسر على التفكير ؛ وواقع الحال ، فلا طريقة للتفكير إلا بقراءة " المفكرين " ؛ وبذلك يعيد المرء نفسه إلى الوضعية الإنسانية ويجعل من حوله لفيفاً من الشهود البارزين . من الجميل أن نرى بأن سبينوزا نظّم بادئ الأمر ، من أجل نفسه بالذات ، فلسفة ديكارت . وللحقيقة فمن أكثر الأمور إلحاحاً على الإنسان أن يكون على اتفاق مع ما هو إنساني ؛ إذ الاتفاق الفكري مع " الطبيعة " ، يمكن تأجيله باستمرار ؛ من السهولة أن نكون جاهلين ، إذ أن من الصعوبة أن نكون عارفين ، ومن أيسر الأمور أن نكون من المجادلين . وهذا علم الفلك ، الذي هو من أسهل العلوم ، يتطلب عاماً أو عامين من المعاينات المتواصلة والمترابطة قبل تحقيق فهم عناصره لا غير . على أن الرأي العام المطمئن إلى وجود آخرين يعلمون هذا العلم بمنهجية وتوافق مع مجموعة الباحثين فيه يكفي بديلاً عن علم الفلك ذاته ، ويُغني معظم الناس عن الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك الرأي العام .

فلنفهم من هذا أن كل رأي مخالف منشق يثير فضيحة ؛ والفضيحة دهشة حزينة بائسة ، سرعان ما تثور وتنفعل بتبادل الإشارات ، وتتولد حينما يبتر أحدهم حبل التوافق الاجتماعي . وهذا ما يفسّر لماذا لا يمكن للمرء أن يحاول إعمال التفكير داخل المجتمع ؛ فهو آنذاك سوف يصطدم بعراقيل قوية وغير منتظرة . وليس من التعقل في شيء أن نخوض " حرباً اجتماعية " في الوقت الذي نريد فيه السير على آثار " الوضوح الناصع " و " التحليل " . على أن الفضيحة بحد ذاتها ليست سوى جرس إنذار . وعندما يعود الفيلسوف إلى عزلته ، فهو لا بدّ أن يجد مزيداً من الأسباب كي يتخذ جانب الحيطة في خطواته . و " العجلة " هي التي تلقي بنا إلى " التفكير الظني " ؛ ولقد وصف ديكارت ، بهاتين المفردتين ، وصفاً قوياً الحلقة الكاملة لأخطائنا .

ولعل خشية الإنسان خاصةً من " العجلة " ، ومن الحماقات غير المحسوبة التي سرعان ما تُنقض كعقاب لها ، هي التي تجعله ينحاز بظنّه بحزم بادئ الأمر واحتياطاً منه إلى ما آمن به دائماً . ويجب هنا أن نجدّد قولنا بأن الذين يغيرون رأيهم وحزبهم بسهولة ليسوا موضع كبير تقدير بين الناس . وهذا الشعور مصيب ، بما ينسب من قيمة للجدية ولعمق الاقتناعات على الأقل كالقيمة التي ينسبها إلى "الحقيقة " ؛ وبالفعل فـ " الحقيقة " هي محض تجريد ومن المستحيل وضع حدّ نهائي لها . إنها حجة الحجج ، وهي حجة راسخة التعليل ، تلك القائلة بأن عملية التفكير يجب أن تكون متمهلة ، ومدعّمة دائماً لمواجهة الأفكار الاعتراضية بيقين ما يرتضيه المرء لنفسه . يجب على الفكر أن يكون في وضعية راسخة ، لا أن يكون تائهاً ، رجراجاً ، مجادلاً ، هائماً على غير هدى . وتلك هي أنبل الأسباب من وراء وجود " التفكير الظني " ، ناهيك عن " كسل " الفكر ، وعن " حب الذات" ، التي هي في هذا المجال من الحلفاء الأقوياء . على أن " التفكير الظني " يولّد نزوعه الخاص به ، حيث تعشش أهواؤه في العقول الحماسية بصورة طبيعية ، بل هي ذات فضول وتشوّق ، حالما تعيش تجربة حرب يصعب خوضها صعوبة فائقة، لمواجهة الآخرين والذات معاً ، مع وجود خسائر مؤكّدة ، ودون أية منفعة مضمونة. وإن " الخفّة " حالة جادة من حالات الفكر الذي يخشى نفسه بالذات ، والذي قطع على نفسه عهداً بأن يضحك من كل أمر .

شــؤون إنســانيــة

حـول التقنيـة

أُطلق صفة " التقنية " على ذلك النوع من التفكير الذي يُمارَس على الفعل ذاته ، والذي يتعلّم عبر محاولات وتعثرات متواصلة . وكما نرى فالإنسان ، حتى وإن كان شديد الجهل بآلة ما ، فإنه بمثابرته على استخدامها ، وملامستها ، والعمل عليها بجميع الأساليب وضمن جميع الشروط ، ينتهي إلى معرفتها بشكل من الأشكال ، وبما يختلف اختلافاً تاماً عن ذاك الذي تعرّف عليها بادئ ذي بدء عن طريق العلم ؛ والفرق الكبير بين هذين الشخصين ، هو أن الفني - التقني - لا يميز الجوهري عن العارض ؛ الأمران لديه سواء ، وهو لا يقيم وزناً إلا للنجاح في عمله . وهكذا ، يمكن للفلاح أن يسخر من المهندس الزراعي ؛ ليس لأن الفلاح يعلم ، أو حتى يشتبه مجرد اشتباه بتفسير السبب الذي جعل السماد الكيماوي ، أو الدورة الزراعية الجديدة ، أو الفلاحة الأعمق للتربة ، لا تعطي النتيجة التي كانت منتظرة ؛ وإنما من خلال الممارسة الطويلة لا غير ، التي نظم بها جميع أعمال الزراعة استناداً إلى فروق صغيرة لا يعرف حقيقتها ، لكنه مع ذلك يحسب لها حسابها ، بينما لا يستطيع المهندس الزراعي حتى أن يشتبه بوجودها . تُرى ، فما تكون إذن خاصّية ذلك التفكير التقني ؟ خاصّيته التجريب باليدين عوضاً عن البحث بالتفكير . الحركة الأولى لدى عامل الهاتف هي أن يهز السماعة ، وتلك حركة يقوم بها التقني . ونظراً لأن طريقة هزّ السماعة هي الأفضل والأجدى ، فلا بدّ أن يتوصل إليها بصورة طبيعية ؛ الجهد الرئيسي للتفكير هنا هو ملاحظة النجاح مع التنبّه في الوقت نفسه إلى الظروف والأفعال ، دون إغفال أي شيء . ولقد

عاينت لدى أهل الحرفة اليدوية ذاكرة شديدة التركيز ، تكاد تكون خرافية ، ذاكرة تسترجع أبسط المحاولات لديهم . رغم هذا يبدو لي أن بالإمكان في هذا المجال التمييز بين صنفين من التقنيات ؛ فهناك الصنف التقني القائم على التجريب دون تخريب وعلى الوصول السريع إلى النتيجة ، كما هو الوضع في الميكانيك ؛ على العكس من ذلك فالتجريب في الممارسة الزراعية يكلّف غالباً ولا تأتي النتيجة إلا بعد انتظار يدوم طويلاً . وما بين هذين الصنفين ، سوف أضع في الوسط الطبيب ، الذي تكون تجاربه دائماً مخاطرة كبيرة . من الواضح أن التقني الأقل تفكيراً بين هؤلاء الثلاثة هو الميكانيكي ، الذي يتوقف حيال كل ارتباك ويجري ما يمكن وصفه بأنه مراجعة لوسائله ، ويجربها بسرعة ، وحتى غالباً ما يتم ذلك قبل أن يكون قد أجرى معاينته . الطبيب هو من يعاين بادئ الأمر . وأما بالنسبة للفلاح ، فهو بالأحرى مسوق بممارسة مهنته إلى اتباع قاعدة للعمل وضعت على المحك مرات كثيرة . ويمكن أن نطلق صفة التقنية الفورية على تلك التقنية التي سرعان ما يتم تصحيحها من خلال النتيجة ، كما نرى في مجالات الميكانيك ، والفيزياء ، والكيمياء . حينذاك يكون التفكير باليدين وتأخذك آلاف التجارب إلى ما هو أبعد بكثير من أكثر المعاينات ألمعية .

لكن علينا الحكم على التقنية الخالصة ، وأن نقول ما هو نوع الفكر الذي تعدنا به . فمن الواضح أن لا شيء يمكنه وقايتنا من الاندفاع ، حالما يتم اكتساب المهارة التقنية ؛ فالفعل يتقدم في الطليعة ، وأما الفكر فيشتغل على النتائج ، اليدان تعملان بحذر وأما الفكر فلا ، لأنه مطمئن إلى قدرته على التصحيح دائماً استناداً إلى الشيء . " سوف نرى بوضوح " ، تلك هي قولة الميكانيكي أو الخبير الكيميائي . ما أودّ الإشارة إليه هو أن " الرياضيات " ، التأملية في تجاربها الأولى ، تصبح بالضرورة تقنية باستخدامها " للحساب " ، وتزداد تقنيتها مع تعقيد المسائل التي تتناولها ؛ وأصفها بأنها تقنية ، حتى في الاكتشافات ، كما نرى لدى

ليبنتز أو أولر ، البارعين في التجريب ، واللذين يحولّان فعلياً طريقة الكتابة مثلما يتمكن غيرهما من تسيير آلة معاندة . والفكر الرياضي تفسيره يكمن في ملاحظات من هذا النوع . وقد يمكن القول بأن " الرياضي " هو بالأحرى شغّيل أكثر ممّا هو مفكر . وسوف نجد دائماً لدى كل تقني ، في الرياضيات أم في الكيمياء ، تلك اللهفة التي تقتضي الفعل ، ولا يعلم كيف يفكر إلا من بعد أن تستجيب المادة بين اليدين ؛ والنتيجة الطبيعية هي ذلك الفراغ الفكري الناتج عن إرجاع الفكرة دائماً إلى الطريقة ، مما يزيل حتى التصور الذي يميز الخطأ عن الصواب . التقني ريبي إلى أن يجرّب ؛ ومن اللافت أنه ، من بعد التجريب ، يظل أكثر ريبية ، وتزداد ريبته حتى من بعد سلسلة طويلة من النجاحات . وذاك أنه لا يعثر أبداً على فكرة ؛ فيجب بالتالي صياغتها .

بالثازار كلايس

لقد أجاد بلزاك وأفاض في وصف النشاط التقني لدى " بالثازار كلايس " ؛ ودون أن تكون لديه فكرة حول الأمر ، إنما بعبقريته التي لا تخيب ، قام بتجميع السمات الحقيقية للكيميائي المولع بعمله . فالمشاهدة المتواصلة لتلك التغيّرات والانتقالات من مظهر إلى آخر ، والمتحققة بمنتهى السهولة ناهيك أنها لا تخطر على بال ، تأتي بالمعجزة ، وبكل ما في الخيال من ضروب الجنون ، والآمال الصبيانية . حينذاك ، يتخيّل المرء بكل قوة جسماً في موضع جسم آخر ؛ ومن شأن هذا العلم تعويد الفكر على التعاقبات الاعتباطية . فكلما رأينا المزيد من هذا النوع ، أصبحنا أقل استعداداً لتحديد أفق الممكن ؛ إذ لم يمكن تجريب جميع عمليات المزج ضمن جميع الظروف الممكنة . ألا وإن المعتقدات السحرية والأعراف المتوارثة تلبس بقوة لبوس الوقائع الثابتة . ومن رأى الزجاج يولد من الرمل والألمنيوم يولد من التراب لا يمكنه بعد ذلك كبح جماح خياله ؛ وحالما لا يعود الشيء تحت النظر ، ها هو التفكير ، إذا أمكننا أن نقول ذلك ، وقد راح يربط أيّ شيء بأي شيء ؛ ومن هنا فراغ في الذهن يكاد يلامس حدود الجنون ، وقد وصفه الروائي بصفات لا يمكن نسيانها ، بدءاً من تلك الخطوة التي خطاها بالثاراز على الدَرَج .

إنها رواية المخترع ، المرتدّ دائماً إلى التجريب بواسطة ذلك العمل الذهني اللا مجدي . وهكذا فهو لا يحاول أن يزداد غنى وثروة ، شأنه في ذلك كالمقامر لا أكثر ؛ فهما لا يسعيان سوى لإيجاد العذر لهما . ومقامرة بالثازار هي في بحثه عن

تفكيره في قلب تجربة المزج . وما العلم الذي سوف يوقف يد النكد تلك ؟ ما العلم الذي سوف يعرض سلفاً حداً ما لتلك القدرة على التغيّر ؟ لقد وصل المحرك البخاري إلى الكمال الذي نراه عليه بعد ثلاثة أعوام من التجارب ، قام بها عامل جاهل كلياً وجد نفسه أمام الأسطوانات والروافع في المحرك كما كان بالثازار أمام الكبريت والزئبق ، أو مثل باليسي أمام مفاجآت النار . والتحريك دون سواه هو الذي يقدم ذلك النوع من الصبر الدؤوب ، الذي يجرب مائة مرة دون أي سبب آخر سوى الرغبة ؛ وهذه الحاجة للتحريك والتي يتم إرضاؤها بكل يسر وسهولة هي دائماً مثل نوع من التوقع الهاجس . ومما لا شك فيه أن علينا أن نتمتع بالقوة النفسية لدى ديكارت ومن لفّ لفّه متى أردنا تأخير التجربة إلى أن يصبح بالإمكان فهمها . على أن باحثينا المجرّبين هم مثل أولئك المتحمسين ، الذين يجربون مرة إضافية المفتاح غير الصحيح ، أو يفتشون مجدّداً في الدرْج الذي سبق لهم أن نبشوه بحثاً عن شيء غير موجود فيه . افترضوا إذن درْجاً نجد فيه في كل مرة أشياء جديدة . فمن بالتالي سوف يكفّ عن التفتيش فيه ، بعد أن يكون قد بدأ بالبحث ؟ ألا فهكذا هي التجربة العمياء .

لا يتعب المقامر من تجريب حظه ، ودافعه الوحيد تفكيره بأن الربح ممكن . وهكذا ينتهي الأمر بالمصادفة لتقيم في فكر الكيميائي . ونظراً لأن عدد المحاولات لا غير هو الذي يقرّب الممكن ويمهّد له بصورة ما طريق التحقق ، فمن المستحيل أن يخلد مثل هذا المقامر إلى الراحة في يوم من الأيام ، حارماً نفسه على هذه الصورة عن طيب خاطر من بعض الفرص . فالهياج التقني يُنسي صاحبه الطعام . ومن أين له في واقع الأمر مقاومة فكرة مزيج لم يتم تجريبه بعد ؟ من أين له مقاومة هذا الأمر ، ما دام الفكر لا مستند له للتصدي للتجربة ، ولا يعود بإمكانه حينذاك أن يطيق التفكير دون فعل ! .

أما المغفل لومولكينييه فيضعه الكاتب أمامنا في هذه القصة مثل نسخة عن

بالثازار ذاته ، لكن من غير العلم اللا مجدي الذي يصبح معه تحت رحمة الرجاء . ليس للخادم سوى الرجاء ؛ ولا شيء يستطيع انتزاع الرجاء منه . وفي النهاية تحصل المعجزة في المخبر المغلق ، دون أن يعرف أحد كيف حصلت ؛ وهذا بالذات لا يخلو من العمق ؛ لأن ما كان يمكن أن يحيد بديكارت عن إجراء التجارب ليس هو الأمل المفرط في الضعف ، بل هو على العكس الأمل المفرط في القوة . ويجب التوجّس من النجاح دون فهم ، تماماً كالتوجّس من الربح بورق اللعب .

براغماتية

هذا الاسم البربري " براغماتية " يشير تحديداً إلى الفكر التقني ، الذي يجعل نظامَ نه ألا يفكر إلا بفعله وألا يتقبل كبرهان إلا برهان النتائج . وقد أُضيفت صفة القداسة على المخبر ، لكن ذلك لا يعدو أن يكون بنتيجة طغيان التقنيّين ، الذين يريدون من الآلة أن تتكلم . حتى بتنا أمام ما يشبه إلزاماً من إلزامات التهذيب يطالبنا بالإعجاب بآخر آلة ، كأقوى ما عرف العالم ؛ على أن هذا الإعجاب لا يؤدي إلى أي شيء ؛ والتصرف الوحيد المعقول آنذاك هو تشغيل الآلة من المعبِّر عن الإعجاب بنفسه ؛ لكن هذه المتعة سرعان ما تتلاشى ، لأن الفكر لا يجد فيها أي غذاء ؛ وهذا التأفف المتململ هو من بين أسباب الحرب ، تحديداً عن طريق تلك الحاجة لبناء آلة أقوى ، وخاصة عن طريق الهياج المسعور لتجريبها . وفي هذا الفكر يكمن الدمار .

إذا كان من حضارة تُرجى ، ومن ثقافة ما ، فليس لنا أن نبحث عنهما في ذلك الاتجاه . فالإنسانية تفتقر إليهما ، من شتى السبل ، إذ أن " الإنسانية " تفترض ، من جانب ، هذا التوجه الفكري الذي يقوم بالتأمل بدايةً ، ثم تحرم نفسها من أن تمس أو أن تغيّر أي شيء ؛ وخارج نطاق هذا الانضباط ، لا يوجد أبداً من زمن للاحترام ؛ من أسهل الأمور التجريب ، وكل تجربة تقودك إلى ثانية ؛ فمهما بلغ هذا الاتجاه من براعة لا بد أن يتجلّى دائماً حافلاً بالخشونة والانفعال ؛ إنه الاتجاه الاستبدادي . وهذا هو السبب الحقيقي الذي يجعلنا غير واثقين من دروس

الأشياء ، إذا ما عرفناها بطابعها الخاص ، القائم على أن النشاط التقني يتقدم فيه بمسافة كبيرة على النشاط الذهني . وللأطفال ميل واضح إلى التجارب التي يوضع فيها الغرض المعني تحت التعذيب ويطالَب بأن يستجيب . يحطم الطفل الأشياء ويعذّب الحيوانات بذلك الهياج المسعور الساعي إلى الاختراع دون تفكير ؛ واستخدام القوة في غير محلّها ، المرتبط ارتباطاً عميقاً بنشاط النمو ، تستجيب له تلك القسوة الباردة لدى مشرّحي الحيوانات دون تخدير ، والذين يفتكون بمئات الحيوانات في الوقت الذي كان يكفيهم التأمل والتفكير بتيقّظ للحصول على الجواب الصحيح . إن الجراح ، إذا ما قورن بالطبيب ، ما يزال من عداد أولئك الناس الذين لا يعلمون كيف يحلّون معضلة ما إلا بواسطة اليدين . وهذه الطريقة هي الطبيعية في المقام الأول لدى الجميع ، كما أنها الطريقة الأولى . وهذا ما يجعلنا نبذل في الحرب كل الوسائل ، فور الشروع بها ؛ وهكذا ففي أبسط حركات الصناعة تكون الحرب حاضرة ، خاصة في الصناعة التي تصهر ، وتفك وتمزج ؛ إذ أن الصناعة التي تستخدم المادة كما هي ، مثل خيط القنّب أو لوح الشوح ، فيها دائماً لحظة تأمل أو توقف ، وهي لحظة جميلة . ولكن سلطان الحديد يمتد إلى جميع المهن ، أما صناعة الورق فتبدأ بتحويل الشجرة إلى مادة تغلي . نعم، وجميع ما نعاني من شرور تنتصب وتتماسك مترابطة ، وفق القانون الذي لا يلين لما يجب أن نطلق عليه اسم : الهذيان التقني .

وتغيب " الإنسانية " أيضاً في هذه البحوث غير المتردّية ، بمعنى آخر أيضاً ، لافتقارنا للفكر التاريخي . ففي التقنية لا يحسب من حساب إلا للأداة الأخيرة . إننا نتهكم على المحراث القديم ذي السكة الخشبية ؛ ومتاحف الصناعة لا توجد إلا لتعليم الازدراء . في مقابل ذلك ، لنفكّر بالاحترام الذي ما تزال تحظى به هندسة أقليدس وعلم الفلك لدى هيبارك ؛ وهما ميدانان للتأمل ، الأول بالانضباط الطوعي ، والثاني بالضرورة التي تميل بنا بالمطلق عن إرادة تغيير شؤون السماء ،

والتي هي بكل وضوح خارج حدود إمكانياتنا . إنها حينذاك أفكار نتعرّف فيها على " الإنسان " ؛ وذاك الذي يدّعي أنه يسبقهما سرعان ما يصبح موضع مهانة ؛ بينما أننا نهزأ من العامل الذي يقوم بنشر قضيب حديدي عوضاً عن معاملته بنار اللحام . ولكننا بملاحقة هذه الفكرة نلمح ثمن " الثقافة " التي يُقال عنها بأنها أدبية ، والتي تتعرّف تعرّفاً كاملاً على الإنسان بأكمله في روائع التآليف . هذا ، وإن هذه الدراسات يطلق عليها هي أيضاً اسم " إنسانيات " . ولكن هناك أيضاً تاريخ غير إنساني ، يغوص إلى التفاصيل التي لا تنتهي ، ويحتقر الأنماط الأرفع شأناً ؛ وفي هذا يجب التعرف إلى أحد أواخر النتائج ، ومن أكثرها تخفياً ، في النشاط التقني . إذ أن عامل الأرشيف سوف يهزأ من ذاك الذي يعود إلى قراءة هوميروس . تُرى أليس ذلك معروفاً معرفة جيدة ؟ وهذا التفكير أيضاً يلحق بالفعل ويأتي من بعده ؛ فالمؤرخ يقرأ ، ويحلل ، ويصنّف ، ويفكك الوثائق وفق بطاقاته ، ويقترح باعتزاز عملاً لم يقم به بعدُ أحد ؛ وهو ما يسخر منه التقني ، المتأكد تماماً بإيجاد شيء آخر ؛ ويُسرع آخر إلى بلاد التيبت : لكنه سوف ينسى أو يهمل بالتأكيد شيئاً ما ؛ وهذا الشيء سوف يكون الأهم عندما يتم اكتشافه ؛ وهنا أيضاً ، الفعل هو الذي يأتي في الأول ، ومن ورائه يسير التفكير . وهكذا تُميت التقنية التاريخية الفكرة التاريخية . وهذا الهذيان التقني أشد بروزاً في ألمانيا مما هو عليه عندنا في فرنسا ، لأن ألمانيا دولة صناعة . ففي العمق ، الفكر الزراعي ، التأملي دائماً بما يكفي ، هو الذي ينقذ الثقافة الحقيقية ؛ والرمز القوي الدال على ذلك هو " الأعمال الزراعية " لفيرجيل من بعد قصيدة هيزيود .

حـول علم الكـلام

يجب أن نطلق اسم علم الكلام - أو الفلسفة الكلامية ، على تلك العملية القائمة على التحضير استكمالاً وتحسيناً للمعرفة بغاية الوصول إلى التوفيق فيما بين الأقوال . وعندما يتعذر وجود شيء تجريبي يمكنه تصويب آرائنا ، تكون الطريقة الكلامية هي الوحيدة بين أيدينا ؛ لكن ، حتى عندما تكون الأشياء على انتظار ويكون بإمكانها تقديم الجواب ، تظل الطريقة الكلامية هي الأولى ، لأن العالم الأقرب هو دائماً العالم الإنساني ، ولأن التوافق مع بني البشر هو الضرورة الأولى المستعجلة ، فيما يخص أي مفكر لا على التعيين . بل يمكننا أيضاً أن نقول بأن كل فكرة تكون أول ما تكون كلامية ؛ وذاك لأن التقنية الموجودة في قفا علم الكلام ، والساعية إلى التوافق مع الأشياء ، هي بطبيعتها خرساء ، وإنما تنتقل بالمحاكاة والتعلّم . والتقنيون ، حتى عندما يمكنهم فعل ذلك بفضل ما لديهم من مدخرات كلامية غنية ، لا يتناقشون عن طيب خاطر ؛ إنما مبتكراتهم هي التي تتكلم .

أما كون الاتفاق في مركز الصدارة ، في جميع الأفكار ، وكون المخالفة تطعيماً للاتفاق ، فهذه حقيقة ناصعة إذ ما أخذنا بالاعتبار أن اكتساب الأفكار الأولى يتم بالتزامن مع أولى التجارب اللغوية . فإذا تركنا الأصول التاريخية التي هي مدار مناقشات ، أكتفي بالقول بأن كل طفل ، على مدى سنوات مديدة ، يفكر مع أولئك الذين يعلّمونه وأن كل جهده هو في ضبط توافقه معهم . لقد تم تشكيلنا كلامياً ، وفق ما تشير إليه هذه المفردة . والاعتراض الوحيد الطبيعي ينتج عن تناقض في الظاهر بين ما قيل وبين ما يقال . نعم ، وما يُساءَل حوله الكاتب بداية

هو ألاّ يتنصّل ممّا قال . فأنا إذا صدقت أنه مُنكِرٌ لما قال ، فكأنني أصبح عاجزاً عن الاتفاق معه دون التعارض معه . كأن يكون على سبيل المثال قد قال بأن النجوم تدور وأنه يقول الآن بأن الأرض تدور ، أو أن يقول بأن هذا الصوف في كيس أثقل وزناً من هذا الرصاص أو السبيكة ، مع تسليمه بأن الرصاص أثقل وزناً من الصوف ، وهنا يصبح المطلوب بالفعل فهم المفردات التي يستعملها فهماً أفضل ؛ ولكن الاتفاق يصبح أعسر منالاً بكثير إذا قال بأن حق الملكية ظالم ، أو أن الله يبتلي من يحب .

غير أن كل نقاش في النهاية ، مهما كانت المسألة ، يمضي متجهاً نحو اتفاق لا يعتريه شك ، ثم ينتقل إلى اتفاق ثانٍ شديد القرب من الاتفاق الأول ، للتوصل إلى التوفيق بين المتجادلين . ويلعب أفلاطون هذه اللعبة بدأب وصبر يثيران الدهشة بادئ الأمر في نفوس أولئك المعتادين على الوصول مباشرة إلى الأمر الواقع . لكن أين هو الأمر الواقع الذي سوف يحسم الاختيار بين ما هو أفضل للإنسان : العدل أم الظلم ؟

يجب القول بهذا الصدد ، من بعد اجتياز مساحات فسيحة ، إن لدينا الاستعداد للإيمان بأن التجربة هي التي تقرر أين الخطأ وأين الصواب . والبندول الشهير لدى فوكو يريد أن يبرهن على دوران الأرض ؛ فإذا ما رأيتُ ذلك البندول يرسم طريقه الخاص على الرمل ، تبدّى لي أني أرى الأرض تدور . لكن ما المانع أن يقول أحدهم بأن ما يدور من حول الأرض المفترض بأنها ساكنة هو الذي يسبب حركة بندول فوكو ، عن طريق الجاذبية ، أو الاحتكاك ، أو ما سوى ذلك ؟ وكما كان يقول بوانكاريه الشهير ، فإذا ما بيّن مثلث فضائي ما أن مجموع زواياه ليس قائمتين ، يظل أمامنا المجال مفتوحاً للاختيار بين موقفين أحدهما يقول بالتخلي عن هندسة أقليدس ، وثانيهما يشير بتغيير قوانين المنظور . حتى أننا لا يجوز أن نكثر من الضحك استهزاءً بالاستعداد الديني الذي يجعلنا نعود بكل الوقائع الجديدة إلى

المبادئ ، وذلك بالتأويلات المرهفة . ونقرأ أن بعض البدائيين يرون بأن التوسل بالصلاة يجلب المطر ، وإذا لم يتحقق مجيء المطر ، لا يترددون بأن يقولوا بأن الصلاة لم تكن على الوجه الصحيح . ويقدَّم هذا على أنه غريب عنّا ، ويكاد يكون مثيراً للضحك . أما أنا فأضحك من الذي يضحك . فهذه الحركة في الفكر هي ملخص فلسفتنا الكلامية ؛ وفلسفتنا الكلامية هي تفكيرنا . فهذا زيدٌ يريد أن يجعل في الكتاب المقدس ما يُغني عن كل شيء . وبالنسبة لي ، فأنا أقرأ أفلاطون والفكرة لدي أن في أفلاطون ما يغني عن كل شيء ؛ وأسمع جميع من يتكلمون لغتي ، والفكرة الماثلة لدي أنهم يقولون ما هو حق وأنهم على صواب . إذ ما يكون فعل الاستماع ؟ وما يكون فعل القراءة ؟ وانطلاقاً من هذه الفكرة ، الأم لجميع الأفكار ، أعمل بدأب للتغلب على الصعوبات الظاهرية . وهذا هو التفكير في البداية . فدروس الأشياء سوف توفر تصويب الأفكار ، اللهم متى كان لدينا أفكار ؛ لكنها لن توجد لنا تلك الأفكار .

اكتساب الأفكار

القول بأن الأفكار تُستمد جميعها من التجربة ، أمر مفروغ منه ومن غير المفيد إقامة البرهان عليه . فما من تفكير دون موضوع ، حتى لو لم يكن ذلك الموضوع سوى كتاب ؛ وليس الكتاب بالشيء القليل ، خاصة ما كان قديماً وذائع الصيت . لكن هذا المثال يبيّن لنا وجود تجربتين . فمعرفة شيء ما ، هي تجربة ؛ ومعرفة إشارة إنسانية هي أيضاً تجربة . ويمكننا إيراد عدد لا يُحصى من الأخطاء مصدرها الإشارة الإنسانية ، وهي تشوّه التجربة الأخرى ، كرؤى ، ووساوس ، ومحاجات ؛ ولكن يجب أن نلاحظ أيضاً بأن أكثر معارفنا رسوخاً بما يتعلق بالعالم الخارجي تُضاء إضاءة قوية بالإشارات الإنسانية المتوافقة . فمن المستحيل أن يعرف المرء من تلقاء نفسه حقيقة الكسوف والخسوف ، بل يستحيل ذلك على جمع متكاتف داخل حياة إنسانية ؛ وما كنا لنعلم اليوم بأن نجم أركتوروس يبتعد عن مجموعة الدب الأكبر لولا أن هيبارك قد ترك لنا تصنيفاً رفيع القيمة للنجوم ؛ حتى ليمكننا القول بأننا لا نصيغ أبداً فكرة واحدة ، وأننا إنما نسير على آثار فكرة إنسانية ونعمل على تصحيحها . نحن إذن نتوجه نحو الأشياء مسلحين بإشارات ؛ والتراتيل السحرية الغابرة تحتفظ بذكرى ساذجة عن تلك الحركة ؛ إذ من الحقيقي بعمق أن علينا قهر الظواهر بالإشارة الإنسانية . وهذا بالتالي أمر له شأنه ولا يُستخف به ، حسب رأيي بالنسبة للتجربة ، إذ لا بد من معرفة الإشارات الصحيحة . ولتفسير الشهاب البارق ، يقول زيد بأنه روح الأموات ، بينما يرى عمرو أنه الهيدروجين خالطه الكبريت . ولتفسير ذكرى حلم من الأحلام ، يقول

زيدٌ بأنها رسالة من الآلهة ، بينما يرى فيها عمرو إدراكاً غير مكتمل أملته تحركات الجسم البشري . وأما إنسان الطبيعة - الفطرة - الذي يتوجّه بمفرده نحو الأشياء ، دون معرفة أية إشارة إنسانية ، دون تجريب أية إشارة إنسانية ، فهذا مخلوق خيالي، لم يولد على الإطلاق .

الإنسان الحقيقي يولد من امرأة ؛ هذه حقيقة بسيطة لكنها ذات نتيجة عظمى، لم تؤخذ أبداً بما يكفي من الانتباه والاعتبار . فكل إنسان وُضع بادئ الأمر في لفائف من نسيج إنساني ، وحُمل من بعدها في أحضان إنسانية ؛ وما من تجربة لديه تسبق هذه التجربة الإنسانية ؛ فذاك هو عالمه الأول ، وهو ليس بعالم الأشياء، وإنما العالم الإنساني ،عالم الإشارات ، التي يرتبط بها وجوده الهش الضعيف . لا تسألوا بالتالي كيف يصيغ الإنسان أفكاره الأولى ؛ إنه يتلقاها مع الإشارات ؛ واليقظة الأولى لتفكيره هي حتماً ، ودون أدنى شك ، في سعيه لفهم إشارة ما . أين هو الطفل الذي لم يتم إرشاده إلى الأشياء بالإشارة إليها ، وإلى البشر قبل الأشياء ؟ أين هو ذاك الذي تعلّم بمفرده اليمين واليسار ، والأسبوع ، والشهور ، والسنة ؟ وإنني لأشفق إشفاقاً كبيراً على أولئك الفلاسفة الذين يسعون جاهدين لفهم كيفية تشكّل التصورّ الأول عن الزمن بالتأمل المنعزل . هل أنتم تتطلعون لمعرفة أفكار الإنسان الأول ، الإنسان الذي لم يولد ؟ التطور ، على الرأس والعين؛ وأما الأصول الأولى ، فلا . وأنا هنا على وجه التحديد أتناول تصوراً هاماً يتعلّق بالتطور . فمما لا شك فيه أن جميع البشر قد عرفوا إشارات قبل معرفتهم للأشياء . ولنذهب إلى أبعد من هذا القول ؛ لنقل بأنهم قد استخدموا الإشارات قبل فهمها . فالطفل يبكي ويصرخ بادئ الأمر دون أن يبغي إعطاء أي مدلول ببكائه وصراخه ؛ على أن أمه سرعان ما تفهمه . وعندما يقول " ماما " ، ذلك الصوت الأول الذي تصدره الشفتان ، والذي هو أكثر الأصوات سهولة ، فهو لا يفهم ما يقول إلا من خلال التأثيرات ، أي من خلال الأفعال والإشارات التي

تبادله أمه بها على الفــور . وكان أرسطو الثاقب الرأي يقول : " ينادي الطفل في البداية جميـــع الرجال على أنهم بابا " . وعبْر تجريب الإشـــارات تحديداً يصل إلى الأفكار ؛ ويصبح مفهوماً من الآخرين أن يـفهم ؛ وهذا معناه أنه يتكلم دون أن يفكر .

ولاحظوا بأن المعنى الأول للإشارة هو التأثير الذي تحدثه في الآخرين . إذن، يعرف الطفل ، أول ما يعرف ، النص البشري اعتماداً على الذاكرة الميكانيكية الخالصة ، ثم من بعد ذلك يفك المعنى بالنظر إلى وجه شبيه . إن الإشارة تشرحها إشارة أخرى . والإشارة الأخرى بدورها ، ترى إشارتها ذاتها مرتسمة على وجه إنساني ؛ وكل فرد بيننا بالتالي يتعلم من الآخر ، وهذه صداقة جميلة . ويا لتيقظ الأم التي تحاول فهم صغيرها ، كما تريد أن تجعله يفهم ، والتي هي تتعلم بهذه الطريقة من خلال التعليم . وفي كل مجلس ، العلاقة ذاتها ؛ وكل فكرة بالتالي هي بين مجموعة أشخاص ، كما هي موضوع تبادل . وهكذا ، فتعلّم التفكير ، هو بالتالي تعلم التوافق مع الآخرين ؛ وتعلّم التفكير بصورة جيدة ، هو التوافق مع أبرز بني البشر ، بواسطة أفضل الإشارات . مع تمحيص الإشارات ، دون أدنى شك ؛ فهذه هي حصة الأشياء . على أن معرفة الإنسان بدايةً للإشارات بمعناها الإنساني ، هو بالضبط النظام الصحيح . إن دروس الأشياء سابقة لأوانها باستمرار؛ وإن دروس الإشارات من قراءة ، وكتابة ، واستظهار ، هي الأكثر إلحاحاً ووجوباً . إذ ، إن لم نأخذ بيد أفكارنا الخاطئة الأولى شيئاً فشيئاً نحو الصواب ، فلن يكون تفكيرنا إلا دون جدوى . كما هي الحال مع أعاجيب التقنية ؛ فالفكر بأكمله في الآلة ، أما نحن فنظل على غبائنا .

حول الأفكار العامة

لن أهب من وقتي دقيقة واحدة لمشكلة قد لا تثير من اهتمام إلا لدى محبّي الجدال . ولكن من الناس ، وأنا أعرف بعضهم ، من يظنون أنهم قد ساروا شوطاً كبيراً نحو الحق ، بمجرّد ارتفاعهم ، على حدّ قولهم ، إلى فكرة عامة . على أني لم أفهم في يوم من الأيام ما كانوا يسعون إليه بسلوكهم ذلك الطريق ؛ إذ أن المطلوب هو بالتأكيد معرفة حقيقة كل شيء ، جهد الإمكان . يبدو لي بالتالي أن الحركة الطبيعية للفكر هي النزول من الأفكار إلى الوقائع ومن الأجناس إلى الحالات الفردية . وكنت قد لاحظت بسهولة ويسر ، علاوة على هذا ، أن جميع أخطاء المحاكمة العقلية تكمن في إعمال الفكر بشيء محدد ماثل أمامنا وفق فكرة مشتركة حول هذا الشيء وحول سواه ؛ كاعتقادنا بأن جميع الإنكليز سريعو الملل وبأن جميع النساء بهنّ مسٌ من الجنون . وقد تبدّى لي في النهاية أن أصحاب النظريات في أكثر العلوم تقدماً ، هم أيضاً خير من يستطيع الاقتراب اقتراباً أفضل من الطبيعة الخاصة لكل شيء ، مثلما فعل اللورد كلفان لدى تفسيره للاضطرابات الكهربائية بالخالص في الكابلات المحدودة تحت البحر وذلك وفق النظرية الجبرية بالخالص حول التيارات الكهربائية المتنوعة ، وكان من شأن ذلك مساعدتي على فهم أن الحالات الخاصة والأفراد غير مشتقين من التفكير ، وإنما يتم التوصل إلى وضع اليد على الحالات والأفراد من خلال التفكير ، علماً أن تلك العملية تظل غير كاملة ؛ وأننا عندما نقول بأن الأطفال والجهّال ينزل الإدراك لديهم إلى معرفة الأشياء الخاصة الفردية لا غير ، فنحن نتقول ما ليس بحق على الإطلاق ، لأنهم لا يمتلكون

سوى إدراكات سيئة التمييز ولا يرون الاختلافات بوضوح جيد . وذاك لأنني إذا ما اقتربت من مخلوق بغية معاينته وإمعان النظر فيه ، فإنما أراه أول ما أراه بالخط العريض ، وبشكل تختلط فيه صورته لدي بسهولة مع كثيرين غيره ؛ فأنا أرى حيواناً ، إنساناً ، حصاناً ، طائراً . بل غالباً ما أجرّب فكرة ما ثم أخرى ، مستخدماً مفردة أولى في البداية ثم من بعدها أخرى ، وفي هذا يقيناً إعمال دقيق للتفكير بواسطة أفكار عامة ، إنما بالسعي المستمر لتوضيح إدراك خاص ، مفرد . وعلى هذه الطريقة نفسها أعمل الفلكيون القدماء تفكيرهم في القانون أولاً ، عندما افترضوا بأن الكواكب ترسم دوائر ؛ ومن ثم افترضوا القطع الناقص ، أي خطاً منحنياً أكثر تعقيداً ، ليتقربوا بالنتيجة من المسار الحقيقي ، الذي هو أكثر تعقيداً بكثير .

أسوق هذه الملاحظات لطمأنة القارئ الذي قد يخطط للسير وفق ما اقترحت عليه في الفصل السابق بخصوص اكتساب الأفكار ؛ إذ أنه سوف يعمل على الإطاحة كلياً بالتصورات التي قرأها في كل مكان ، ليس لدى " العظماء " ، الذين لا يتنطح أحد لقراءتهم إلا قليلاً ، وإنما لدى فلاسفة الصالونات . باختصار هاكم المخطط التجريدي لكل عملية اكتساب للأفكار . فالإشارة الأولى التي يُمكن فهمها تشير بطبيعة الحال إلى كل شيء ، دون تمييز للأجزاء أو للاختلافات ؛ والفكرة الأولى ، التي تُضمّ إلى هذه الإشارة الأولى ، تتطابق مع فكرة بسيطة جداً وعامة جداً ، كفكرة " مخلوق " أو شيء " ما " . ويقوم التقدم بادئ الأمر في المعرفة على أن نلمح ونميّز في الشيء " ما " ، جانبين ، بحيث يكون أحدهما مثلاً " ماما " والآخر " بابا " ، أو نحن حيال " ليلي " أو " لولو " . وأورد هاتين الكلمتين من كلام الأطفال ، لأنني لاحظت بأن أطفال النورماندي يقولون عن الحليب " لولو " ، وهو ما يقولونه عن الماء ، بينما أن أطفال البروتاني يقولون عن الماء " ليلي " ، وهو ما يقولونه عن الحليب ؛ ويدل هذان المثلان دلالة واضحة

كيف أن الكلمة الواحدة تدل على أشياء كثيرة ، وهذا يعود بنا إلى التأكيد أننا ننطلق دائماً من عدد صغير من الأفكار العامة جداً ، إلى عدد أكبر من أفكار أكثر فردية . وسوف يكون من واجب علماء اللسان تقديم شهادتهم بصدد هذا الأمر ، رجوعاً إلى الجذور اللغوية التي نعثر عليها معدّلة لكنها دائماً في متناول التعرّف عليها داخل عدد كبير من الكلمات المختلفة ، وفي هذا إثبات كافٍ بأن الكلمة الواحدة دلّت في البداية على أشياء كثيرة ، وفق أكثر التشابهات إدهاشاً . وما زالت أكثر الأقوام تخلّفاً تدهش المسافرين باستعمال نجده لديها جميعاً ، حيث يُعطى بسهولة الاسم نفسه لكائنات لا تتشابه إلا قليلاً . وعلى أي حال فاللعبة القديمة ، لعبة التحوّلات ، تترجم بما فيه الكفاية استعداد الفكر لتناول ما هو متشابه تماماً ؛ وهو استعداد للفكر ، تدعمه الكلمات دائماً وأبداً . ومما لا شك فيه أن الاستعارات سوف تقدم شهادتها هي أيضاً . لكن ، توقفوا ها هنا . فموضوع الاستعارات سرعان ما يكشف ، من بعد ملاحظات مفرطة السهولة ، عن صعوبات عليا .

حول الأفكار الشمولية

نقول عن فكرة ما بأنها عامة عندما تنطبق على أمور عديدة ؛ ولكن عندما نقول عن فكرة ما بأنها شمولية فلا نعني بذلك أنها تنطبق على الأمور جميعها ؛ إذ لا وجود لمثل هذه الأفكار إلا بما يخص " الممكن " أو " الوجود " ، علماً أنها من الأفكار المجوّفة والتجريدية إلى أبعد الحدود . أما أفكار " المكان " ، و " الزمان " ، و " السبب " ، التي تعبّر يقيناً عن علاقات ، فلا نستطيع القول بأنها تنتمي إلى شيء من الأشياء ؛ قد يكون من الأفضل القول بأنها ضرورية ، بمعنى أن كل تفكير يضفي عليها شكلاً ، دون أن يكون قادراً على تغييرها حسب هواه ، اعتباطاً . ونظراً لوجود أفكار تشترك فيها العقول جميعها ، فهذه الأفكار تحديداً هي التي يجب أن توصف بالشمولية ؛ ولن يكون علينا سوى الرجوع إلى الاستخدام المشترك ؛ فنحن إذا قلنا عن شيء ما بأنه مقبول على العموم ، إنما نعني بذلك بأن التجربة تسوق معظم الناس إليه ، تبعاً لحالات متشابهة تقريباً . بينما نقول عن شيء ما بأنه مقبول بصفة شاملة ، ونريد بقولنا هذا تبيان أن ذلك الشيء جلي ولا يمكن إنكاره ، كما ترى العقول جميعاً عند تناول هذه المسألة .

لنقل إذن بأن الفكرة لا تصبح شمولية لمجرّد ازدياد عموميتها . فالفكرة البدائية حول " المانا " ، التي تشير إلى قوة غير مرئية تتخفى خلف كل مرئي ، أو ما شابه ذلك ، هي من العمومية بأكبر قدر ممكن ؛ على أن الفكر النقدي لم يتقبلها بعد كفكرة شمولية ؛ بمعنى أننا لا نتبيّن معالم الطريق الراسخ للوصول إلى فهمها .

وأما فكرة " الدائرة " ، التي لا تنطبق على الأشياء جميعها ، فهي بالمقابل تنطبق على العقول جميعها ، بمعنى أننا نملك الوسائل لنوصل كل من يفكر إلى تبيّن معالم هذه الفكرة بصورة صحيحة ؛ ولهذا كان لا بد من القول عنها بأنها شمولية . وغالباً ما يعتبر التقنيون الأفكار على أنها عامة ؛ وهم بذلك يشيرون إلى صيغ للعمل تكون صالحة حتى لمن لا يفهمونها ؛ على سبيل المثال " إحصاء وفيات " يوضع تحت تصرف إنسان قد يكون غير قادر على الإطلاق على إجرائه هو شخصياً ؛ كما ينطبق هذا على " جدول لوغاريتمي " أيضاً . لكن من الواضح أن الأفكار المأخوذة على هذه الصورة لا تعود أفكاراً أو مُثُلاً " بالمعنى الحقيقي للكلمة . فـ " الفكرة - المثال " ، في مثل هذه الحالات ، هي النظرية التي يمكن البرهان عليها ، والتي تفرض نفسها على كل عقل مجهّز كما يجب ؛ وليس كونها عامة هو ما يجعل منها فكرة ، وإنما مردّ ذلك أنها شاملة . فلو لم يوجد سوى شيء واحد لا غير دائري الشكل داخل نطاق التجربة البشرية ، لا يقلّل هذا من كون " الدائرة " والرقم الثابت " (" فكرتين شموليتين . ناهيك أن لا وجود لشيء دائري ، إذا ما نظرنا بعين التدقيق والتشدّد . والدائرة ما هي غير وسيلة من بين مجموعة وسائل تتيح لنا مقاربة الأشكال الواقعية وتحديدها تحديداً يتحسن باستمرار . ولعل بإمكاننا القول أنْ لا وجود لفكرة تكون عامة بالفعل ، إلا ما كان على سبيل الاستخدام وتسهيل التناول ، وأنّ كل فكرة هي دائماً نتاج تفكير شمولي . وإذا كان الشق الأول من هذه الصيغة موضع أخذ وردّ ، فالشقّ الثاني لا يتعرض لأي جدال . فمهما فكرتُ ومهما كان تفكيري مستعصياً على الشرح ، فأنا إنما أفكرّ نيابة عن العقول جميعاً ؛ ونظراً لأن هذا التصورّ للعقل بعيداً عن كل شيء يحمل في طياته بعضاً من عدم التحديد ، لنقل بحذر والتزاماً ببرّ الأمان بأن كل فكرة يتم إعمال الفكر فيها من طرف العقل البشري . وهذا ما يحدو بمن ظنّ أنه قد عومل بظلم ، إلى الاستعانة ، في عزلته ، بشخص ما يكون محايداً ، لرسوخ يقينه بأن من حوله لم يتفقوا بشأنه ، وأنّ ذلك لا مردّ له سوى أنهم لا يستطيعون أو لا يريدون فهمه . وتلك هي الفكرة

المستترة وراء البرهان الشعبي ، الذي يتم الرجوع إليه دائماً ، والذي يوضع دائماً موضع الجدال ، ألا وهو برهان " الموافقة بالإجماع " . مما لا شك فيه أن لا وجود لأية مسألة يتفق حولها جميع البشر ، حتى بشأن العمليات البسيطة المتصلة بالأعداد الأربعة الأولى* ؛ إذ يوجد بين البشر المجانين والبلهاء ، ناهيك عن أولئك الذين لا يمكن أخذ رأيهم واستشارتهم . لكن هذا لا يمنع أننا إنما من أجل الناس كافة ، حالياً وفي المستقبل ، نصيغ أية فكرة لا على التعيين ؛ وبمقدار ما تجد البراهين قبولاً لدى النبهاء وحسني الاستعداد بين البشر ، تصبح تلك الفكرة إنسانية شاملة . ونجد من خلال هذا مقدار الدعم الذي نجده ، كي نفكر كما يجب ، بما يتفق مع كبار مفكري القرون الخالية ؛ وأن من الواجب ، في جميع الأحوال ، أن يتمّ هذا التوافق ، أو أن نسعى أو نتطلع إلى الوسيلة التي توفر تحقيقه ؛ إذ الدحض هو أن يدحض الإنسان نفسه . وعن طريق هذه الحجّة ، من واجبنا الاعتراف في نهاية المطاف ، بأن التعابير التي هي في الوقت نفسه طفولية وقوية لدى أكثر المؤلفين بعداً عنا ، إنما تشكل جزءاً من الملكية المشتركة ، وأعني بالملكية المشتركة هنا الفكر العام المشترك . وإذا ما ضلّ أفلاطون أو هوميروس وخرجا عن العقل ، أو ضلّ " التقليد " لهما ، فلا يعود للفكر الإنساني من وجود . ومن لم يعرف كيف يقهر الاختلافات ، والاستعارات ، والأساطير الميثولوجية ، ثم التعرّف على نفسه من خلالها ، لا يكون عارفاً كيف يفكر . وبالتالي ، فـ " الثقافة " الأدبية تمضي إلى ما هو أبعد بكثير مما يخيّل إلينا .

---

* مصطلح الأعداد الأولى يطلق على الأعداد التي تقبل القسمة على العددين ١٨ و ٣٥ (المترجم).

حـول اللغـة

الإنسان الذي لا يعرف غير الأشياء هو إنسان بلا أفكار . وإنما مستقرّ الأفكار في اللغة . وهذا ما يفسّر أننا لو استطعنا إيجاد مقارنة بالنتائج بين طفلين ، أولهما لا يعير أبداً أدنى انتباه إلا للأشياء ، وثانيهما لا يعير أبداً أدنى انتباه إلا للكلمات ، فسوف نجد بأن الثاني متفوق على الأول في جميع المجالات تفوقاً بعيد الشأن . إذ ليس من الصعب التقاط تجارب عائلية ، وإلحاق كلٍّ منها بالكلمة التي تدلّ عليها بالاستخدام العملي ؛ والمهنة في هذا المجال ، توصل مطلق إنسان إلى إتقان يثير الدهشة ؛ أما بالنسبة للأفكار والعواطف التي تحتل الأهمية الكبرى ، فيظل الحرفي في عداد الأطفال . وعلى العكس ، فإن كلاً منا يجد لدى دراسته للغة حقيقية جميع الأفكار الإنسانية منسّقة في منظومة ، وإضاءات تنير له التجربة بالكامل ، وهذا ما يساعده سريعاً على القيام بتقدم هائل ، لأنه يتأنسن من جانب ، بحصوله على موجز يختصر له كل ما سبق اكتسابه ، وأنه ، من جانب آخر ، بملاحقته للكلمات عبر مختلف الأجيال ، يجد في تلك الخطوة الاندفاع الذي يتناسب مع طبيعةٍ مفكرة عامرة دائماً بالحيويّة والخيال ، بكل قوة . وضمن هذه الزاوية ، فالاختلاف كبير بين اللغات الناجزة التامة التي نبتكرها وفق طبيعة الأشياء : آمبير ، فولت ، أوم ، وبين اللغات الشعبية ، التي تهتم اهتماماً أكبر بالطبيعة الإنسانية ، أي بالصعوبات الفعلية التي يصطدم بها كل إنسان يطرح على نفسه أسئلة . ولنلاحظ أن من النادر العثور ، حتى في اللغات التقنية ، على كلمات لا أصول

لها، كما هو حال المفردات التي سبق لنا إيرادها قبل قليل . فكلمة " وظيفة " ، إذا ما أخذت بمعناها الرياضي ، لا تتجرّد بنتيجة ذلك من نسقها السياسي . وكذلك مفردات : معادلة ، تامة ، تلاقي ، حدّ ، تظلّ تحمل صفتها ككلمات إنسانية ، رغم جهود التقني الذي قد يتمنى ها هنا أن ينسينا كل معنى آخر خارج المعنى المحدّد بالتعريف الرياضي . وهذه التقنية ، شأن كل تقنية أخرى ، تنحو باتجاه إزالة الفكرة . وفي كل مرّة نتعلم فيها لغة جديدة عن طريق الرحلات ، والتجارة ، والصناعة ، إنما نتعلّمها تقنياً ، أي ساعين لا غير إلى تسمية الأشياء دون التباس ؛ والطريقة المباشرة المشهورة حتى التخمة والقائمة على الإشارة إلى الشيء عند لفظ اسمه ، تبدو وكأن غايتها ونتيجتها تخليصنا تماماً من " الثقافة " .

وعلى هذه الصورة يمكننا تعلّم لغة اتفاقية تماماً ، معزولة عن كل ماض . على أن اللغة الحقيقية لا نتعلمها بالطريقة نفسها ؛ فنحن حينذاك إنما نفهم الكلمات بالكلمات . هنا يُستنفر الفكر للقيام بالتفكير . والتفوق الكاسح للغات الميتة على اللغات الحيّة ، أن أحداً ما لا يستطيع أن يعرض علينا الأشياء ، وإنما نتعلّم المعنى حينذاك بالجذر الاشتقاقي وبالروابط بين الكلمات ؛ ويكون الأعلم حينذاك ، كما هي الحال عندما نحتك بأنسني حقيقي ، هو الذي يبحث بين معانٍ كثيرة عن المعنى الذي تفرضه الكلمات المجاورة ، والذي يتدرج نحو الفهم عبر حشد الكلمات السابقة واللاحقة . ومن يمكنه تعريف كلمة عقل ؟ فنحن نقول بأن الإنسان وُهب العقل . كما نفهم العقل بأنه " الحجة " ونقول : حجّة الأقوى ، ونفهمه بأنه السبب ، ونقول : سبب التطور المطّرد ، وهو أيضاً العذر عندما نقول : استعذر ، وأعذر ، وإذا شربت لا تلمني ، كما نقول : كتاب فيه حكمة ، والشرط الاجتماعي* . ولكن كم أزدادُ غنى وافداً متى اكتشفت الجذر اللاتيني ratio،

* يورد آلان هنا بعض تراكيب «raison» في اللغة الفرنسية : Demander raison . La raison du plus fort, La raison d'une progression, livre de raison , en buvant, fais-moi raison, rendre raison , raison sociale. (المترجم) .

الذي اشتقت منه كلمة ration؛ فأصلُ إلى ratus التي هي صفة بمعنى مقتنع، وإلى reor التي تعني آمن ، ثم ratification، التي تضم في حقيقة الأمر هذه الروابط مجتمعة في حزمة واحدة ، عندما تعني التصديق ، أو التوثيق . هذا الغنى الوفير إنساني الطابع ، وعليّ أن أخضع له وأتوافق معه ؛ ومتى طفت على جميع هذه الاشتقاقات بالخط العريض ، أكون قد أصبحت وافر الغنى . ولا بدّ لنا من أن نورد دائماً ، مردّدين من بعد كونت ، المعنى المزدوج في كلمة " فؤاد " ، التي تشير في الوقت نفسه إلى العاطفة والشجاعة . وأما répondre- أجاب ، لبّى - ففيها شرح معنى responsable- مسؤول ؛ وتأتيك spondereاللاتينية فتتضمن المعنيين معاً . وهذه أيضاً مفردات تجمع بينها صلة قربى : prudence- حذر ، رَوِيّة - ، و prude- متعفف ، طاهر الذيل - ، و prudhomme- رجل عفيف وحاذق ؛ ولديك courage- شجاعة - و courroux- غيظ ، حنق - وهما على الدرجة نفسها من القرابة ؛ وكذلك ففي choléra- كوليرا - وجه شبه من colère - غضب - . وهذه مفردات الرحمة ، وإبداء الرأي ، والحق ، والعدل ، ولكل منها معانٍ رائعة . ويقولون : شؤون إنسانية ، وشعب ، ومَلَكية . وكل ملاحظة نسوقها سرعان ما تكشف عن فكرة ذات أهمية . ترى فما تكون حالنا لو طلب منا تخمين ما يرمي إليه كاتب غابر من مئات السنين استناداً إلى تلك الإشارات الملتبسة التباساً رائعاً ؟ خاصة إذا ما تأكد التفكير بدايةً بجمال لا يمكن الجدال فيه يفرض نفسه على مشاعرنا مباشرة بالإضافة إلى كونه قد حظي بمباركة قرون من الإعجاب . ألا فهنا منبع كل تفكير ، ليس فقط حول " السياسة " و " الأخلاق " ، وإنما أيضاً في حقل العلوم الطبيعية .

الفكر الصائب

نقول : فكر صائب ، ولا نقول : فكر غير صائب ، علماً أن القول الثاني متضمّن افتراضاً في الأول . وليست معرفة الأشياء بأكثر الأمور صعوبة ، بل كان سقراط يقول إن تلك المعرفة ليست هي الأكثر إلحاحاً . ويمكنني أن ألاحظ اليوم كيف تأقلمت الأجيال مع فكر وضعي بدقة وأنها تسيطر بيسر على هذا الصنف من المعارف التي تجعلنا نتحكم بالأشياء . لكن قد يكون من الخطأ الاعتقاد بأن هذا التأهيل فيه الكفاية لتشكيل الفكر الصائب . فالفكر يكون دائماً على صواب حيال الأشياء فور معرفته لها ؛ ونضيف أنه يعرفها فور اضطراره إلى ذلك بحكم المهنة ؛ غير أن هذه المعرفة بعيدة كل البعد عن الإحاطة بجميع أعماق دلالة هذه الكلمة الجميلة ، " الفكر الصائب " . وإذا أردنا أن نحكم برأي حول الإنسانية فعلينا الرجوع إلى مبادئ أخرى . إن رؤية الناس من خلال فكرة " الضرورة " ، أمر قصير المدى ، وهو أمر بعيد عن الصواب . خاصة وأنهم ينزلقون في هذا المنزلق بمجرد إحساسهم بأنهم عالقون على تلك الصورة . والفكرة القائلة بأن التجار يسرقون ما أمكنهم ذلك تجعل منهم جميعاً سارقين بالفعل ؛ هم سارقون ، لكنهم غير راضين . إنهم شعراء ورجال أخلاق .

عندما نقرأ لدى مارك أوريل : " حاذر من تدنيس الصوت الداخلي لديك " ، نخاله قد ابتعد كثيراً عن مستوى عامة الناس . علماً أنه ، في نهاية الأمر ، كان إنساناً ما ، ولم يكن سوى إنسان من الناس . ولم يكن بعيداً كل البعد عن المستوى المشترك لدى الجميع . هناك ملوك كثيرون يتنازلون عن العرش دون إعمال

التفكير بذلك ؛ لكن إذا ما فُرض التنازل فرضاً ، فلن يوافق على هذا أحد ، أو يكاد لا يوافق عليه أحد ؛ ومن هنا تأتي الحروب . والتفكير بتلقّي الخوف والسير وراءه على طريقة الحيوانات العجماء أمرٌ لا يطيقه الإنسان . فكم من الأشواط قطعها الإنسان لتصحيح تلك النزعة ! ومن الأمور الصحيحة أن " المعتكف " النافر من الناس و " العارف " الملتصق بالناس لا يستنيران البتة بذلك ، إذ يقول الأول بأن الافتراس الحيواني ما هو إلا في رقاد ساكن ، وهذا القول ليس حتى نصف حقيقة ؛ بينما يقول الثاني بأن الحرب ضرورية ، وأنها محتومة إذا ما نظرنا إلى الأعماق ، وأن ما من إرادة تقدر على تغيير أي شيء في هذا الواقع . إنها آراء مجانبة للصواب بالعمق ، وهي التي تشكل " الفكر المغلوط " . وإنما الحرب في حقيقتها أزمة خوف ، محكومة لدى الكثيرين بانتفاضة حرية . غير أن تلك الانتفاضة تمضي إلى ما هو أبعد من الغاية ؛ فقد لا يكون من اللازم ، لتوفير السلام، إلا الإيمان بحزم بالبطولة الإنسانية . لكن هنا أيضاً ، كما في ميدان البحث التقني ، يفضل الإنسان التجريب على إعطاء الرأي الباتر . وذاك لأن بداية التجريب لا تثير الرعب ؛ أما إذا آمن الإنسان بنفسه لا غير ، فهذا أمر مختلف . والفكر المغلوط هنا هو بالتالي كما في كل أمرٍ آخر فكر دون شجاعة .

يأخذ " الموضوع " على عاتقه أن يعلّمنا " الضرورة " ؛ فلندع كل خشية . لكن كيف السبيل إلى تعلّم " الإيمان " ، و " الرجاء " ، و " الإحسان " ؟ كيف السبيل إلى ذلك إلا عن طريق الإعجاب بخير بني البشر والتشبه بهم ؟ وها هو الطفل يمضي دون تردد في هذا الاتجاه ، مدعّماً بجهله ؛ وتلك هي وجهة تُحرّك الإنسان . وإنما يعود الخطأ في " الرأي " إلى عدم الإيمان بـ " الإنسانية " . وأجمل الأساطير في هذا المجال هي أسطورة هرقل ؛ فذاك هو الأنموذج الذي جعله الإنسان قدوة له ؛ إنه صاحب ينشر الطمأنينة بكل معنى الكلمة . أقول إذاً بأن من اللازم توافر " العظمة " الروحية وحتى " السمو " للبتّ بالرأي الجيد .

لكن دون التخلي عن القسوة ؛ وقد لاحظت بأن من يحتقر كثيراً يغفر كثيراً ؛ وعلى العكس فمن يقدّر كثيراً يطالب بالكثير ، متجاوزاً مع ذلك عن الأمور الطفيفة ، أما ، في مواجهة الأخطاء ذات الشأن ، فيبحث فيها دائماً عن الفضيلة المتخفية وعن الغلط الذي يمكن تعليله ، وتلك طريقة يحقق الإنسان من خلالها التسامح دون أدنى محاباة . وأنا إنما أتكلم هنا عن الرأي المجرد ؛ وأترك جانباً العقوبات ، العائدة إلى نسق مختلف . ويمكنني أن أقول عن الإنسان إنه قاس ، بمعنى ما ، إذا حكم على أخيه الإنسان بالبقاء على جهله ، وكذبه ، ووحشيته بسبب ضرورة فطرته الطبيعية ؛ غير أن كثيرين يطلقون عليه أنه قاس بمعنى مختلف كلياً ، متى راح يبطش وهو على أعلى قمم الروح ثم يظلّ على انتظار .

الفكر المرهف

العارفون ، الذين يعاينون أول ما يعاينون في النظام الخارجي أكثر العلاقات بساطة وأكثرها تجريداً ، حازوا قصب السبق من علم إلى علم وصولاً إلى البيولوجيا ، تدعمهم باستمرار الطريقة القوية التي تنتقل من المعلوم إلى المجهول . ويجب تقدير هذه القوة ووضعها في أعلى المراتب ، ليس لما توفره من تحكم في الأشياء فحسب ، وإنما خصوصاً للانضباط الذي تفرضه على فكرنا القائم طبيعياً على الاضطراب ، والقلق ، والمسترسل مع الأحلام . هنا يبرز ديكارت بطلاً لهذه المعركة ، التي يجب في مجالها أن يعرف المرء كيف ينتظر ، ويتشكك ، ويمضي بالجسارة إلى الأعماق ، استناداً إلى ذلك المبدأ الأخلاقي القائل بأن كل تفكير دون حرية تفكير مغلوط . وهذا ما جعله يقرّب الفيزياء إلى تخوم النظام الإنساني في كتابه " دراسة حول الأهواء " . فذاك عملُ ناسكٍ التزم بنظام لا يخرج عنه ولم يعتمد إلا على ذاته .

ولكن النظام الإنساني ليس في حالة انتظار ، بل نحن غارقون فيه . والتجريب الأعمى هو الذي يقوم تقريباً بكل شيء ، لدى الحاكمين على اختلاف مشاربهم ، من قام منهم بالتعليم ، أو بالإقناع ، أو بإسداء النصح والمشورة ؛ ولعل هذا الصنف من المهارة ، إذا ما انفصل عن كل ثقافة ، هو ما يضفي على الفكر أسوأ تشكيل ، مما يجب أن نسميه طفولياً ، لأن السياسة المتلمّسة لطريقها على غير هدى هي سياسة الطفل الذي لا يتطلع سوى إلى النتائج . ونظراً لأن الأدنى ينهض عليه

الأعلى ، فالناس يسوقهم بسهولة التملّق ، والتهديدات ، والوعود . وهذا ما يُرينا في الأعمال المصرفية رجالاً عاديين بكل وضوح وقد وصلوا إلى مصاف الملوك في القوة . وهنا أيضاً نجد أنفسنا حيال نوع من التقنية ، لكنها تقنية لم يحسن تقويمها ذلك النظام الإنساني المرن ، المتجاوب كل التجاوب مع ما لدينا من آراء . ألا إن الإنسان جشع ، وسريع التصديق ، ومحتال ، بمقدار ما نفترض أنه كذلك ؛ وإنما يستمد الممسكون بشؤون المال والسياسة لدينا حكمتهم من تلك التجربة السيئة القائمة على أن الموضوع يتغير وفق الرأي لا غير . وهذا الصنف من بني البشر كثير ؛ وفي هذا ما فيه من الإرهاف ، لكنه إرهاف ولا فكر .

يشترك في هذا الابتذال الرائج الجاهل والعارف على حد سواء ، بمجرد أن يجدا نفسيهما مندفعين ، دون ثقافة حقيقية ، إلى التحكم بمصائر البشر . وليس للمهندس في هذا الميدان قيمة أكبر بكثير مما للمصرفي . هذا بأكمله معروف بما فيه الكفاية ، كما أن آثاره مرئية بما يكفي . على أن ما لا نفهمه دائماً ، هو حقيقة أن التربية الأدبية هي التي تحضّر هنا إعطاء الرأي بصورة مناسبة ، من خلال مشهد " النظام الإنساني " ، الذي لا يتم عرضه كما يجب إلا في أسمى " الروائع " الإنسانية . الإرهاف هو النبل ؛ والحيلة الحقيقية هي أن نفترض الأفضل لنوفّر له سبل التحقق على أرض الواقع . سوف يبدو هذا الرأي أقل غرابة لدينا إذا فهمنا حق الفهم كيف يتجاوب الرأي مع الرأي ، وأنه يكفينا أن نفترض بأن طفلاً ما هو من الكسالى أو الكذابين كي يصبح كذلك بالفعل . والتأثير على الإنسان إنما يتم بتذكيره بما هو عليه . أنتم إذن من يتوجب عليكم أن توقظوا بالأحرى الطوابق العليا ؛ إذ كل شيء في سبات .

إذن ، هذا هو القانون الأسمى الذي ينهض عليه الرأي ؛ فحالما يصبح النظام الإنساني موضوعاً ، يكون ذلك دلالة على أن الأفضل هو الذي يضيء كل شيء . أنزلْ الإنسان من عليائه وها هو يتهاوى إلى أسفل سافلين . وأنت في الطليعة قل

عن نفسك إنك حيوان ، فتصبح كذلك ، محدوداً ، كما تصبح كذلك ، متردداً خائفاً ، وأنت ما تراه في نفسك . على الفور ودون تأخير . وهذا ما يصدق على الآخرين أيضاً . وهنا يتوضّح أمامنا لماذا تخدعنا لا محال الخبرة التي لم يتم تصحيحها . إذن ، الأفضل هو الذي يعلّمنا ، وعلينا إدارة دفة الحكم ، وإسداء المشورة ، وتقديم التعليم انطلاقاً من قوالب يُقتدى بها . وهي نادرة ومختلطة في التجربة المباشرة ؛ بينما تكون على العكس منتقاة ومصفّاة في التجربة الأدبية ، التي قد يستحسن أن نسميّها جمالية ، وذاك لأن جمال التعبير هو ما ينتزع من أيدينا الرغبة والوسيلة لإفساد العواطف المتداخلة والجسورة كما تمثلت في أفكار سقراط ، أو مارك أوريل ، أو فيرجيل . إذ كلُّ ما افتقر إلى الجمال وقع بين أيدي العوام الذين يقتطعونه ويعيدون تركيبه بما يناسب مستواهم . وأما ما هو جميل فيبقى دائماً على حاله ، ودون أن تضيره ضائرة ؛ وهذا هو الموضوع المناسب إذا أردنا إعمال التفكير في " الطبيعة الإنسانية " ، التي تتعرض دائماً للمهانة ولا معين . إذن ، كبار المؤلفين هم المرآة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن يرى نفسه فيها إنساناً . والإعجاب هو أدق منهج لتشكيل الفكر .

حول الأفكار الخاطئة

يطيب لي بقوة التسليم بأن في " الاشتراكية " من الحقيقة أكثر مما في "الإنجيل " ؛ لكن أحداً لن يصدق أن الاشتراكية كانت ستكون ما هي عليه لولا الإنجيل . وحول هذا الأمر يمضي تفكير الاشتراكي بصورة طبيعية إلى القول بأن هذا التقدم قد حصل وانتهى ولا حاجة للرجوع القهقرى ففي هذا مضيعة للوقت ؛ وأن الجانب الإنساني في الإنجيل انتقل إلى الاشتراكية ، وأن خير ما في التآليف القديمة تم التعبير عنه تعبيراً وافياً في خير ما في التآليف الجديدة ، وأن الفكر الإنساني في نهاية المطاف ، بعد أن وصل إلى النضج ، لا يحتاج إطلاقاً إلى أن يتظاهر بالطفولة . فكأنما نقول بأن الرجل لا يحتاج إطلاقاً للمرور أولاً بالطفولة . وهذا الفكر الذي لا طفولة له يتطابق مع نوعية الذكاء الذي يمكن للفعاليات التقنية أن تعمل على تطويره . ولقد لاحظت بأن التقني ، الذي لا يحتاج إلا للفكرة الأخيرة ، ينتهي به الأمر عن طريق هذا الاقتصاد في التفكير إلى أن لا يعود لديه أية أفكار على الإطلاق . وهذا ما لم أجد سبيلاً لفهمه بسهولة ؛ ولا أستطيع تفسيره بيسر في كلمات قليلة . لكني أريد أن أقول شيئاً ما حول هذا الأمر ؛ إذ أن تلك المدارس التقنية التي أثقلنا حياتنا بها راحت تجهّز لنا نوعية من البشر أُسيء تركيبها . صيغة وهيجان ؛ وقد عرفت نفراً من أولئك المتعصبين الذين ليسوا على يقين من أي شيء ، إلا ما كان من قولهم بأن هذه الصيغة أو تلك هي آخر ما حُرّر في الأيام الأخيرة . وفعلياً فالفكرة الخاطئة لا تشكل شيئاً ذا بال ، وكذلك شأن الفكرة الصحيحة التي هي أيضاً لا شيء . ففي جميع الأفكار الصحيح والخاطئ ؛ لكنها جميعها تصبح خاطئة بمجرد أن نتشبث بها ؛ وإنما الانتقال عبر الأفكار هو ما يشكل جانب الصواب فيها جميعاً . حركة الانتقال عبر الأفكار هو الصواب وليس

الفكرة الأخيرة لا غير ، تلك التي تقترب على أفضل ما يكون الاقتراب من الموضوع وتعرضه من ألف زاوية ، وإنما أيضاً الفكرة الأولى الأقدم عهداً ، تلك التي من خلالها تتناغم الطفولة مع النضج حتى كأنها بشكل ما تحمله . إذ الأدنى ، وفق المقولة الشهيرة ، يحمل الأعلى ، ليس في الماضي فقط ، وإنما الآن وفي كل أوان ؛ طفولتنا هي ما يستمر يعيش في داخلنا ، فتدفع عنا الحزن والمرض ، وتبحث في ما هو أبعد مما قد اكتُشف ، وتبتهج بهذا العالم الغني ، والطفولة هي التي تضع في كل فعل وفي كل تفكير حركة تزيد قليلاً عما يجب ، والتي ، في النهاية ، تعمل وهي تغنّي بسرور . أما من خرج خروجاً كلياً من طفولته ، فهو إنسان شديد التحجر ؛ وهو بخيل ومكتهل ، والديمقراطي المكتهل ، والثيوقراطي المكتهل ، هم جميعاً واحد ، إنهم رأس " ميدوزا " الذي يحجّر " الأمل " . إنهم جميعاً يقضون ويجهزون عليّ ؛ على أنني أريد التجوال والانتقال إلى أفكار أخرى عبوراً من الأفكار التي لديّ . ألا فهكذا يكون قهر التقدم في العمر . وأنا على خشية من الشيوخ المكتهلين . وليس " مارس " سوى إنسان كهل .

إن التعلّم يعني بحق وحقيق اجتياز الطريق بدءاً من الأشعار الأولى ، وصولاً إلى أشد المفاهيم متانة . ولكن لا يجوز إساءة فهم ما أقول . فكل تفكير ، لدى كل إنسان ، هو هذه الحركة بالذات ، أو أنه لا يكون تفكيراً على الإطلاق . فذاك الذي يعشق السلام ، ويريده بكل جوارحه ، لا يكون بعيداً عن الرغبة في إحراق " الإلياذة " ؛ فالإلياذة ، على حد قوله ، ليست سوى محض هيجان وهمجية . ألا فهذا يعني الرغبة في التفكير دون حياة . إذ في الوقت الحالي تضطرب " الإلياذة " في أحلامي بكل معاركها ، وتتجلى في فورات غضبي ، وكلما نفد صبري وضاق صدري من الانتظار ؛ حينذاك تتحرك قدماي وذراعاي وتجرفني مثل قدمي وذراعي " آجاكس " ؛ أسرَع بكثير من إيقاع تفكيري . على أن هذه " الإلياذة " سيئة النظم ؛ وهي لا تعدو أن تكون فوضى لا يمكن التعبير عنها ؛

وذاك البدائي لا يحسن الكلام ؛ وأنا لا أحسن التخاطب معه . بينما أن " الإلياذة " الحقيقية قد اكتست بشكل إنساني ؛ لقد رسم التفكير لها إطارها ؛ وقد سما بها التعبير ؛ فهي في مصاف التفكير مذ ذاك . وهذا ما يجعلني أتعرف على نفسي فيها ؛ فالشعور فيها يمر من خلال الفكرة ؛ وإنه شعور يجرف معه كل إنسان ؛ فأكثر ما في الإنسان من طفولة يتخذ فيها شكلاً ، ويستدعي أموراً أخرى ؛ وهكذا تمهّد " الإلياذة " لـ " الأوديسة " ؛ والأولى والثانية تمهدان لظهور " الإنياذة " ، حيث خيّل لهوغو أنه يري تباشير التاج المسيحي ؛ وكذلك حال الفروسية ، والبابوية ، والحملات الصليبية عند " لوتاس " ، أو " جهنم " دانتي ، فهي تستدعي وجود شيء آخر ؛ إذ فور تشكل فكرة ما ، يجب الخروج منها ؛ أو بالأحرى ، يجب بواسطة تلك الفكرة صياغة فكرة أخرى ؛ بل أقول أيضاً بأن أقل الأفكار اكتمالاً ، بما هي أكثرها تأثيراً ، تستدعي أكثر مما سواها فكرة جديدة ، مذكّرة إيانا على هذه الصورة بخير ما في التفكير الصحيح . وإنما يطيب لنا أن نقرأ هوميروس المرة تلو المرة ، كما نتلو صلاة الصباح ، لأننا لا نستطيع أن نتوقف عنده ، ولأنه لا يعدو أن يكون بداية ، مع أنه يضم كل شيء في صيغته الملكية الفخمة .

حـول الـرواقيين

لا نعرف الرواقيين إلا من خلال أخلاقهم التي تقاسمت مع أفلاطون مجد العناية باللغة المشتركة . ولكن مبادئهم الأخلاقية القوية كانت ترتكز على أفكار تأملية ، ذهبوا معها ، فيما يخيّل إلي ، إلى أبعد ما أمكن لنظرية " التفكير " أن تذهب في يوم من الأيام . ومهما قال بهذا الصدد أهل الاطلاع الشامل ، فهذا الجانب من مذهبهم ، الذي أطلقوا عليه اسم المنطق ، لم يُنقل بأمانة تقل عن أمانة نقل الجانب الآخر ؛ وإنما كان المنطق لديهم أصعب فهماً لا غير . وللحق والحقيقة كان الرواقيون الختام العريض الأفق للتبلور الهيلّيني ؛ وذاك بإصدار الرأي النهائي في " الأفكار – المُثُل " التي أراد أفلاطون مذ ذاك أن يضع من فوقها شيئاً ما أرفع وأسمى . ولكنه مع ذلك يُعتبر دون مجانبة للصواب فيلسوف " المُثُل " ؛ إذ قام تأليفه على إظهار كيف أن ظواهر هيراقليط التي يتعذر الإمساك بها تم تنظيمها في مقولات متينة ، من بينها العدد ، والخط المستقيم ، والدائرة ، التي تؤلف أكثر البراهين انتشاراً . وأما التشبيه الشهير بالمغارة ، وما يتبع ذلك ، بما يميز بين المُثُل وبين الأثر الملحوظ في المادة التي بين يدي المطّلع ، فما يزال فيه حتى يومنا الحاضر تفسير علومنا بأكملها .

وهذا ما تصدى له أرسطو بقوة ، من بعد دراسته على مدى عشرين عاماً . فكانت الخطوة الثانية في التفكير التي لا تقل جمالاً عن سابقتها . إذ بالتأكيد لا وجود للمُثُل ؛ وإنما الموجود هو هذا الشيء أو ذاك بصيغته الفريدة ، التي لا يضاهيها أي مثال فكري ؛ والفردي هو ما ينهض من فوقه كل شيء ؛ إذ ليس "الإغريقي " هو " الموسيقي " ، وإنما سقراط ذاته هو في الوقت نفسه " موسيقي

" و " إغريقي " . وحيث أن الأفكار لا تستطيع حتى الترابط بعضها مع بعض دون وجود عون خارجي ، فمن الأولى رفض الاعتقاد بتماسكها تماسكاً خالداً كمُثُلٍ لجميع الأشياء . نعم ، يصنع الحرفي سريراً طبقاً لموديل السرير ، غير أن الطبيعة تقوم بعملها من الداخل ؛ وفي كل طبيعة نجد موديلها محتجزاً وفريداً فيها . وما يعبّر عنه الفيلسوف المتشدّد بكلمتين اثنتين ، " شكل مادي " ، فهو يقول أولاً : " شكل " بدلاً من " مثال " سعياً منه لتقريب التجريد من الشيء ؛ وهو ثانياً يريد أن يفهمنا بأن الفكرة الصحيحة عن الشيء هي الشيء بذاته ، الشيء بذاته في الصميم، وهذا ما رمى به في أحضان أشدّ أنواع الميتافيزيقا تشويشاً ، كما نجدها متشكلة لدى ليبنتز . كان من الواجب خصوصاً الارتفاع بالممكن المجرّد إلى مصاف " الاستطاعة " ، ليصل بذلك كل فردي إلى كماله في ذاته تحديداً ، فلا يستطيع التغيّر إلا بتطوير ذلك الكمال . ومن هنا فكرة " الإله " في حالة " فعل " لا يتوقف، وهو إله حيّ ؛ وتلك هي الموضوعة الخالدة لدى اللاهوتيين . على أن هذه الفلسفة رغم أنها أكثر متانة كانت ما تزال بعيدة كل البعد عن الأرض . لقد تناول الرواقيون القضية دون أي التفاف أو مواربة .

فإذا كان الفردي هو الموجود لا غير ، فلا صحة لأية فكرة عامة ، دون أن يستدعي ذلك استخلاص أن التفكير يجب أن يضيع داخل الإدراك كإدراك . فالفكرة الصحيحة يجب أن تكون إدراكاً صحيحاً لكن الشرط لمثل هذا الإدراك شرط مضاعف إذ يجب على الفكر أن يرسمها حسب أشكالها من طرف ؛ وبهذا المعنى فالأفلاطونية صحيحة بأكملها ؛ وهذا ما جعل الرواقيين يتمسكون بقوة بـ " العقل المشترك " ، مثلما نعلم . لكن الواجب يقتضي من طرف آخر أن يكون الإدراك العاقل محسوساً في الوقت نفسه ، أي أن يدرك بدوره ما هو فردي في حالاته المختلفة ؛ وهذا ما يبيّن بأن الفكرة ليست سوى وسيلة ، وأن الصحيح هو باستمرار قيْد الاكتشاف ، نظراً ، بكل وضوح لوجود تنويع لا نهاية له بين جميع

المخلوقات ، وفي كل مخلوق على حدة . فها هو " التفكير " إذن قيد الفعل والعمل ، مطبّقاً أفكاره باستمرار ، ومعقّداً لها حسب المنهج وفي الوقت نفسه حسب الموضوع المادي . ألا والإدراك قيْد الفعل ، كما كانوا يقولون بكلمة واحدة، هو مدركٌ ويمكن إدراكه ؛ والحكمة هي في هذا العمل وليست على الإطلاق في امتلاك فكرة . ولذلك كانوا يقولون أيضاً ، قاصدين ضمناً بأن لا صحة لأية فكرة، إن " الحكيم " لا يغلط أبداً ، لأن حركة التفكير لديه وجهتها ما هو صحيح ؛ وكليانت حكيم فور تعلّمه ، لدى وصوله إلى العناصر ، إذ هو يتجه نحو الشيء ، عن طريق الأفكار ؛ ألا وهذا التقدم هو الحق . كما كانوا يقولون بأن " الفكر " المشدود هو الفكر الحق ؛ وعلى هذا فالتفكير الجيد يكمن في الابتكار وليس في التلقّي . وهذا ما قد يتعرّف فيه أفلاطون على كل ما لديه ؛ إذ قال كل شيء بمغارته، ما دام على الحكيم في النهاية واجب تفسير " الظلال " . غير أن عبقرية أفلاطون كانت دون شك تترك مزيداً من الأمور الواجب تخمينها ؛ هذا دون حساب أن العفريت السياسي كان يدفعه إلى الإصلاح بدلاً من التأمل ، كما هو حاصل . ودون شك كان لا غنى عن العبقرية الأرسطوية ، الراسخة على الأرض رسوخاً أفضل ، ليصبح بالإمكان التغلب على المنطق ، وليصبح بإمكان الرواقيين أخيراً القول بأن جميع الأخطاء سواء . وهذا ما لم يستطع شيشرون أبداً فهمه ، إذ تعذّر عليه الاشتباه بأن الأخطاء جميعها سواء ، باعتبارها من بنات الكسل والجبن .

انضباط الخيال

حالما نفكّر ، يتشنج الجسد ، تماماً كما يظهر على إنسان تستغرقه الهموم . ولا تفسد هذه التشنجات حسابات الجمع ، ولا البحوث الهندسية ؛ ونطلق بوضوح تام صفة مجرّدة أو متباعدة على تلك المعارف التي تتشكل دون إخضاع الحركات للانضباط . والقصص المسلية ، التي غالباً ما تجعلنا نضحك من تصرفات أناس في غاية العلم ، هي الدليل على أن أفكارهم بعيدة كل البعد عن طبيعتهم . أما الرقص فمكانه في الطرف المناقض ، نظراً لأن الحركة تشغل حينذاك الفكر بأكمله . وما بين الاثنين يقع عمل التفكير ، الذي يتناول دائماً بصورة طبيعية أصعب القضايا ، كالسلام ، والعدل ، والقدر . وهذا ما يفسّر أننا لا نرى كثيراً أناساً مشغولين بالتفكير إلا من كان بينهم من التعساء . ولا يمرّ يوم لا ترى فيه في باريس إنساناً عراه النحول والهزال وهو يتكلم ويلوّح بيديه متحدّثاً مع نفسه بالذات؛ وفي حالتنا هذه ، من الواضح كل الوضوح أن الكلام والحركات هي السبّاقة وأن الأفكار تلحق بها دون توقف على الإطلاق ، ودون أن يمسك بها الانتباه على الإطلاق . علينا أن نطلق على هذا الاندفاع لدى الإنسان المجرّد من الثقافة صفة عدم الاعتدال والتوازن ؛ وهو ما يدفع الحذرون شرّه باللعب بالورق أو بتبادل المجاملات . وفي هذا البرهان على أن الفكرة المؤثرة لا يمكن السير وراءها ما لم يتم ضبط الخيال في الوقت نفسه . ولذلك ليس لنا أن نتوقع الكثير من تلك الأفكار الوضعية والخالية من كل زخرفة ، تلك التي نجود بها للطفولة ، التي لن يكون من تأثير لها في أحسن الحالات إلا أن تصنع قروداً مهرة بإجراء الحسابات ،

وهم بالعمق من أهل الفظاظة ، غير المنضبطين وغالباً ما يكونون أشقياء أو تعساء . أنا شخصياً أريد لهم أن يفكروا على مقربة أكبر من أنفسهم ، وأن يحصلوا على الخيال منذ البدايات في أفكارهم الأولى ؛ وهذا ما تنجح فيه الحكايات نجاحاً وافياً؛ وكون الفكرة مختفية في الحكاية ليس بحد ذاته شراً ، بل هو خير . ومن الشروط المواتية لإعمال الفكر أن تكون الفانتازيا مضمونة وشبه متعانقة مع الفكرة التي يجعل التفكير من خلالها كل الجسد في حالة تنبّه ؛ ألا فهذا ما يضفي على القرد الصغير وجه الإنساني .

لقد اكتشف كونت قانوناً بعيد النتائج ، يجب علينا اتخاذه دليلاً هادياً في هذه القضايا الصعبة ، ألا وهو أن كل فكرة تبدأ من صنمية وثنية ، لا تعدو أن تكون من بعض ألعاب " الخيال " ، فتتكامل من خلال " اللاهوت " ، أو إذا أردنا كلمة أوضح ، من خلال " الميثولوجيا " ، ليكون ختامها التجريب المنهجي ، الذي يوصلها إلى الحالة " الوضعية " . وهذا معناه أننا أطفال بادئ الأمر ؛ بل أقول إننا أطفال بدايةً في كل تفكير وعلى اختلاف مراحل العمر ؛ ومن لا تكون بدايته من هذا المنطلق لا يتوصل أبد الدهر إلى النضج الحقيقي . ولذلك يجب أن نمضي إلى حد القول بأن الشعر وحده يعطينا أفكاراً بالفعل . والتعليم الذي يوصف بأنه كلاسيكي لا يُفهم إلا من خلال هذا الأمر . فالطفل يقرأ ، يتعلّم ، يستظهر ، ينسخ ، يترجم مقداراً من النصوص الجميلة ؛ وافهموا من قولنا : جميلة ، بأن التعبير فيها عن الفكرة ينجلي بإطلاق الخيال دون قيد ، وإنما دليل الاعتراف بذلك أن تلك النصوص يجب أن تنال الاستحسان بادئ الأمر . وتلك النصوص هي ، بصورة طبيعية ، غامضة وفوق مستوى الطفل ؛ غير أن مثل هذا الوضع يتناسب مع طبيعتنا ؛ وتلك حيطة ، أو تكاد ، يجب اعتمادها ، في ربط الفكرة ربطاً وثيقاً مع التعبير ؛ فلن يستطيع الطفل دائماً التوصل إلى صياغة الفكرة ؛ لكن إذا ما صاغها فسوف تكون فكرة راسخة وخاصة به دون غيره . ولا أحد يحصل على

فكرة فعلية من غير توافر بعض الألمعية ، أي من غير خيال مصقول ومنظّم يسبق الإدراك العقلي .

لا يمكن تفسير قدرة الأساطير والأمثال الحكائية تفسيراً مختلفاً ، تلك التي نجدها دائماً وراء استعارات وتوريات الأسلوب الجيد . أما أفلاطون فيتكلم بالأساطير ، وأما يسوع فيضرب الأمثال . وهذا ما يمس شغاف قلب الإنسان ، وأول ما يستيقظ فيه مركز الثقل ، نظراً لجاهزية الخيال على خير ما يرام عن طريق سحر البيان الشاعري . ولكن المعلّم ، بحكمته الأعمق ، يتركنا حيث نحن ، وقد فاضت بنا تلك الصور العامرة بالمعاني ؛ ويترتب علينا نحن دون سوانا استخلاص الفكرة من الصورة ، إذا استطعنا . من تلك الأفكار سيلعبون الطفولة ، والنمو ، والنضج ، ولا أرى من جانبي أية طريقة أخرى لتعلّم التفكير . وهذا سبب ، لكنه مستتر إلى حد ما ، في عدم الاستعجال بتفسير الأشعار ، والحكايات ، والخرافات؛ إنها مثل بذار تزرعه في الفكر . وإذا انساق أحدنا وراء إعطاء تفسير ما ، فخير ما يأتي به دائماً هو الرجوع إلى النص الحرفي عن طريق الاستظهار المتكرر . وهكذا يقدم " الكتاب المقدس " لأجيال لا عدّلها ولا حصر " النص الحرفي " قبل " الفكر الروحي " ؛ وهذه الطريقة الناجمة عن التبجيل تضفي قوة لأفكار عادية جداً . وهذا هوميروس وقد جعله الإعجاب " الكتاب المقدس " لدى الإغريق .

حول الفكر التاريخي

لعلّ الدراسات الكلاسيكية تعرّف الفكر التاريخي خيراً مما يفعل التاريخ بالذات . خير دليل في هذا الميدان هو عبادة الأموات ، أقدم عبادة في كل مكان وهي القائمة في كل مكان . غير أن فكر الأحياء يجري فيه دائماً تطهير وما يشبه محاولة تأليه للأموات دافعها تلك الحاجة للإعجاب التي هي الجانب الإنساني الخالص في الحب . وحتى حيال من هو على قيد الحياة ، ها هو الحب النبيل يهمل ويطمس الأمور القليلة الأهمية ، بل والأخطاء الفادحة غالباً ، سعياً منه على الدوام عن سبب للإيمان بما هو أفضل والتعلق بحبال الرجاء . وإنه لامتحان يبعث على الرهبة يقع فيه كل بشري ، إذ يجد نفسه وقد حُمّل من الفضائل ما لا يطيق ، وغالباً ما يمضي من إفلاس إلى إفلاس لعجزه عن تسديد فواتير تلك الفضائل . على أن الأموات لا يقترفون بعد موتهم أي خطأ . وبالتالي فالحركة الصائبة في التفكير هي الاستعانة بنصائحهم الباقية عبر ذكراهم ، وهكذا يصبحون مندمجين داخل تفكيرنا مع ما نجده في أعماقنا بالذات بين أكثر الأمور جدية ورشاداً . إذن ، التبجيل هو على آثار الذكرى . ومن خلال ذلك بالتأكيد تقدم ذريعة النبل يد العون إلى الفرد ، لأنها تعرض نفسها دائماً نموذجاً أكبر مما هو عليه في واقع الحال .

تبعاً لهذا النموذج من الفكر التاريخي ، يجب بالتالي التحلّي بالجرأة لإلغاء الكثير ونسيان الكثير ، بحيث نعرض على أطفالنا ما يشبه أسطورة حقيقية . وهذا هو المقصد الذي تنحو إليه الفنون الجميلة ، إذ لا تأخذ في الحسبان أبداً إلا خير ما تبقّى . لا سـبيل لنجاة الإنـسانية إلا بهذه الوسيلة . ولذلك فالاطلاع الشامل

الذي ينتقص كل شيء ما هو غير لعبة تبعث على الأسى . إذ أن التربية تتطلب عدم وجود أي شك ؛ ولا بد من تاريخ بطولي ، تبرز فيه أسطورة هرقل على أنها الأنموذج الأكمل .

قلت : أسطورة حقيقية : إذ الصحيح أن الإنسان قد تغلب على حيوانات مرهوبة الجانب وعلى كل ما كان لديه مفعماً بالقسوة والجشع ، مثلما أنه اخترع النار ، والدولاب ، وبكرة رفع الأثقال ، والآجر المشوي ، والزجاج ، ناهيك عن المخباط والقوس ، والعديد من الأدوات والآلات ؛ مثلما من الصحيح أيضاً أنه اخترع الكلام ، والكتابة ، والجبر ؛ وأسواق البيع ، والمصارف ، والتعاونيات ؛ والعدالة ، والشجاعة ، ورباطة الجأش ، تلك الأمور جميعها والتي لم تكن في البداية ما هي عليه الآن . ورغم وجود الريبة بصدد جميع الأصول ، فلا نشعر بريبة مماثلة بصدد الوسائل . نحن لا نعلم النبات البري الذي جاء منه القمح ، لكننا نعلم بأن الزراعة ، والعرف المتوارث ، وانتقاء الحبوب الجيدة هي التي جعلت من القمح ما هو عليه اليوم ؛ ويصدق هذا الرأي على تدجين الحيوانات وتربيتها ، كما يصدق على جميع الابتكارات التي تفترض دائماً حالة ما من حالات المجتمع وتناقلاً للمعرفة ، بالإضافة في الوقت نفسه إلى المحاولات الدؤوبة والملاحظات اللماحة لدى هذا الفرد أو ذاك . وحيث أن الخطأ الأكبر في التربية هو تناسي الأدنى الذي ينهض فوقه بنيان كل شيء ، كالقراءة مثلاً التي تنهض عليها الثقافة ، فإن من دواعي الانحراف عن جادة الصواب إلى حد ما أن نتناسى أقل الأمور معرفة في التاريخ ، علماً أنها قد تكون الأقرب والأيسر تناولاً ، ألا وهي الابتكارات التي وفّرت بادئ الأمر الاستطاعة ، والمؤونة ، وأوقات الفراغ ، تلك الأمور التي ما كان بالإمكان على الإطلاق تصوّر نشوء الحياة الأسمى دونها . ناهيك أن في ذلك التاريخ الافتراضي ما يساعد كل إنسان على إعادة اكتشاف نفسه والتعرف على ذاته ، أكبر مما هو عليه حقيقة في واقع الحال ؛ وذاك لأن الحياة الواقعية لا تقدّم أبداً

مثل ذلك الترابط ، والشـــرط المحدّد للإنسان هو أنه ينسى بيسر قدرته الحقيقية . وهذا هو دون شك السـبب الذي يجعل معرفتنا الجيدة للأحداث الأقرب ستارة تخفي دوماً على وجه التقريب التقدم الحاصل فلا نرى سوى الأمور العارضة ، الطارئـــة . ولذا فإن التاريخ الافتراضي بصـــدد الاكتشافات الأولى ما هو سوى التحضير الجيد للتاريخ الآخر ؛ وكم أرغب لو فتـشوا في تاريخ أعمال التعذيب ، والمعارك ، والثـورات ، عن الحقيقة ذاتها التي يستـشهد بها تاريخ القمح أو تاريخ النار .

حـول الشعـراء

اللغة أداة التفكير . وأصحاب الأذهان الذين نطلق عليهم أنهم خاملون ، غافلون ، كسالى ، هم حسب الظواهر غير مثقفين ، تحديداً بمعنى أنهم لا يتوافر بين أيديهم سوى عدد قليل من الكلمات والتعابير ؛ ومن سمات السوقية التي تصدم كثيراً استخدام كلمة ما في جميع المجالات . غير أن هذا الفقر ما يزال فيه من الغنى الشيء الكثير ، مثلما تدلنا الثرثرات والملاسنات ؛ كل ما في الأمر أن اللهوجة المندفعة مع الرجوع المستمر إلى الكلمات ذاتها تبيّن لنا بأن تلك الآلية خارج نطاق السيطرة كلياً . والتعبير " لا يعرف ما يقول " يأخذ حينئذ كامل معناه . يمكننا معاينة هذه الثرثرة في جميع أنواع الثمل والهذيان . حتى أنني لا أجد للإنسان سبباً آخر للخروج عن العقل والصواب ؛ فالاندفاع الحماسي في الخطاب يسبب الجنون على أساس من الأفكار العامة . ولذا فمن الصواب أن شرارة التفكير الأولى لدى كل إنسان وكل طفل ، هي العثور على معنى ما يقول . ورغم غرابة هذا الأمر ، فنحن محكومون بضرورة الكلام دون معرفة ما نحن بصدد أن نقوله ؛ وهذه الحالة من الخلط المبهم حالة مستقرة في كل فرد منا ؛ فالطفل يتكلم ، بطبيعة الحال ، قبل التفكير ، ويفهمه الآخرون قبل أن يفهم نفسه بالذات . إذن ، التفكير هو كلام الإنسان مع نفسه .

يقيناً ، إنها لحظة جميلة ، مثلما لاحظ كونت ، تلك التي يكون فيها الإنسان وحيداً مع نفسه ، وها هو في الوقت ذاته المحامي والقاضي ؛ إنها لحظة التفكير المتأمل ؛ بل هي لحظة الوعي والوجدان ؛ ودون شك فلا يتم إبراز " الذات " إلا

بالكلام مع " الذات " . لكن لنقل بأن هذه الثرثرة الانعزالية فيها قلق يصل إلى حدود الهوس . فلا يمكن بادئ الأمر أن يحسن المرء توجيه كلامه ؛ لأن توجيه الكلام ، ليس سوى المحاولة بصوت خافت ومن ثم الإعادة بصوت مرتفع ؛ أما كلامي مع نفسي فيقتضي مني أن اسلّم القياد لكلامي وأن أصغي إليه ؛ والإحباط ، وهو الحالة الاعتيادية ، سرعان ما يثير الغيظ والانفعال . وهنا ندرك قيمة الحِكَم المنتشرة التي تساهم في إضفاء التعقل والحكمة على آلية الكلام . ومن المؤكد وجود متعة لا حدود لها في الإعادة والاستشهاد ؛ ففي هذا ما يساعد المرء على التعرّف على نفسه وامتلاك ناصية ذاته ؛ وهذا ما يفسّر لماذا لا تلقى الحكايات الاستحسان إلا داخل شكل ثابت .

لكن ، مقابل تلك الحاجة للتعرّف على الأشياء ، يوجد في اللغة ما يشبه آلية قوامها لزوم التغيّر وهو لزوم بيولوجي يُطلب من الموسيقا ، والشعر ، والفصاحة أن تستجيب له وترضيه . إذ يجب على بعض أقسام الكلام أن تفيء إلى الراحة بينما تنفرج أقسام أخرى من بعد العطالة والخمول . ونظراً لافتقار الثرثار المهذار إلى ذاكرة مزينة بالأقوال الجميلة بسبب انعدام ثقافته فهو يقفز من حديث إلى حديث ، دون حتى أن يكون بمقدوره أن يعيد على وجه الدقة ما يعطي لكل مقطع من كلامه ما يشبه ومضة التفكير .

وفي مقابل هذا البؤس الثقافي ، لنتأمل ما يقوم به بيت من الشعر الجميل كوسيلة دعم رائعة للتفكير التأملي . إذ لا يمكن قول بيت الشعر إلا كما هو حرفياً ، ودون ذلك سوف يختل الوزن ، وتضطرب القافية ، وهذا ما يضمن لك ألا تحيد وتنزلق جانبياً ؛ فها أنت تتريث ، وتجد الكلمات بحرفيتها ، وبذاك تجد نفسك بالذات . بالإضافة إلى هذا ، فهذا الفن القائم على أن ينشد المرء تفكيره إنشاداً يضع بين يديه دائماً داخل ذلك البيان الموقَّع تعويضاً عن الجهد المبذول ، ما كان في سبيل إيجاد الأصوات ، أو ما كان من أجل الترابط ، وهذا ما يؤدي إلى الارتياح

من بعد عمل متوازن لجهاز الكلام ؛ ويجد المرء نفسه بذلك محمياً من انزلاقات الحديث المشرّق المغرِّب ، بينما أن الجملة التي في غير محلّها بناءً وتركيباً تستدعي الاستنجاد بجملة بديلة . ولهذا السبب فكلام المرء مع نفسه لا يستقرّ كما يجب إلا من خلال الأقوال الشعرية المأثورة . إذن ، بمثل هذه الآثار الأدبية يبدأ الطفل بالتفكير ؛ ويمكنه حينذاك أن يصغي إلى نفسه بالذات ، ويتعرف على تفكيره الخاص داخل تلك الآثار الإنسانية ؛ غير أن الأثر الأول جماليّ ؛ فالطفل بادئ الأمر إما منكمش أو منفعل ؛ ثم ها هو فيما بعد يتعرّف على نفسه . وسرعان ما تطمئن هذه الملاحظات المعلم بخصوص اختيار الآثار الأدبية ؛ إذ الأساس هو أن تكون جميلة ومفعمة بالمعاني ؛ ولكن التسلسل لا يقتضي من الطفل أن يفهمها قبل حفظها . بالتأكيد ، يمكن أن يكون ما يدلّ على الفهم في الكلام الارتجالي الذي يصدر عن طفل ما ؛ غير أن المعلّم يستسلم بسهولة زائدة لتوهّمه بأن ما يثير الاهتمام لديه فيه تعليم وتثقيف للطفل أيضاً ؛ لكن العكس هو الصحيح ، فالطفل يضيع عندما يبدأ بالكلام عن شيء ما ؛ وهذا هو الموجب الحتمي ، لدى استدراج الطفل لإعطاء إجابات حرّة ، أن نجعله يسرع إلى كتابة ما يقول ، كي نطرح عليه السؤال بخصوص الجواب بالذات . تطلق اللغة المشتركة بيننا صفة " أفكار " بصورة طبيعية على الصيغ التي تُحفظ وترسخ في الذاكرة ، موفّرة بذلك مادة للتفكير . وعندما أقول بضرورة وجود نقطة الارتكاز تلك ليستند إليها الطفل ، فأنا لا أعني بذلك أن الفكر الأنضج والأرسخ من فكر الطفل يمكنه الاستغناء عن هذا المرتكز ؛ فأكثر الأخطاء رواجاً هو الانزلاق في منزلقات جانبية ، والسقوط من فكرة لأخرى وفق القوانين الآلية التي تتحكم في مبدأ السقوط . والضياع التائه هو التسمية الحقيقية لتلك الحالة من الضياع التي يقع فيها الفكر .

وهكذا فقد جاء أوغست كونت بقولة عظيمة عندما زيّن له أن يطلق صفة " صلاة " على التأمل حول قصيدة من القصائد ؛ إذ أن ذلك التأمل يستنطق لدى

" الإنساني " أسمى ما فيه ؛ إنه الضربة التي تشق الصخر كما فعل موسى ، سعياً إلى خلق " المعجزة " ؛ وهكذا يجد المرء نفسه في قصيدة قد تعود إلى ألف عام مضت ؛ وهكذا يُستخلص من هذه المادة الجامدة أغنى ما فيها ، وهو غنى لا نهائي الحدود . في كل تأمل جمالي تتجلّى هذه السمة ؛ ولكن هذه الصفة الجميلة ، صفة " صلاة " لا تنطبق على جميع التأملات ؛ إنها تنطبق الانطباق الأمثل عندما أستطيع ، في أي مكان لا على التعيين ، من خلال الاستظهار الخاشع ، إنتاج هذا الموضوع الذي قد يكون فيه إسعاف لنا . وأما من لا عبادة ولا صلاة له فلن يعرف أبداً الانتباه الحقيقي .

دراســــات
من أجل « الأفكار والأعمار »

الشخصية

يُقصّر الوصف ها هنا ، إذا أُسيء ترتيبه ، في توضيح موضوعه ، وذلك لغنى وتنوع المضمون . فالغضب الذي يتملكني هو أنا ؛ وكذلك فأنا أيضاً ، إنما بطريقة مختلفة ، الرأي الذي أشرح به هذا الغضب ؛ وصنعتي أو وظيفتي التي تضبط المزاج دائماً ضبطاً خفيفاً وتخفي الطبع غالباً ، هي أيضاً أنا ؛ ولا تتساوى حقيقتي إن كنت مزارعاً ، أو عاملاً ، أو تاجراً ، لا ولا إن كنتُ عامل صيانة للطرق ، أو سجاناً ، أو محافظاً . على أي حال ، ففي كل إنسان مكتمل ، كل ما سبق أن ألمحت إليه بإيجاز هو من الأمور المعروفة ، وأبعد من هذا فهو مدان ويتم التغلّب عليه ، إما لأنني ، بازدرائي لوظيفتي ، أخضعها لأمرة مبادئ إنسانية بكل معنى الكلمة ، وإما لأنني أحزم أمري ، على العكس ، بأن أُلزم كل شيء بالتنازل والاستسلام أمام واجب الطاعة ؛ وإما أنني ، بنظري إلى هذين الأسلوبين في الحياة كمجرد زخارف للكياسة والتهذيب ، أقوم بعقد صداقة أعمق غوراً مع تلك الأنا المحبّة ، والمتألمة ، والقلقة ، والتي لا يعرفها سواي ، والتي لا أريد أن أجعلها تحت هيمنة أي شيء ، وإما أنني ، في الختام ، وهذا ما يحصل ، لا أريد التعرّف على نفسي إلا من خلال الحركات المفعمة بالحيوية والنزوة ، وتلك طريقة للاستمرار مع الطفولة ، إذ أن ذلك الحكم الأعلى الذي أُصلح به أو أُقوّم أو أختصر أي عنصر من عناصر حياتي الخاصة بي ، هو الآخر أنا أيضاً . بل يجب القول بأن رفض الانطلاق مع الحياة بصورة طبيعية وعفوية ، والفكرة القائلة بأن الأمر متروك لي كي أقبل ، أو أرفض ، أو أغيّر نفسي ، هو تحديداً ما يكمل بناء الشخصية ،

بالوعي الذي يتوافر لدي حولها من خلال هذا التعارض ، من خلال هذا الرفض ، من خلال هذا " الحكم " . ويستقر ها هنا سرّ كل استقصاء ، حتى ما كان وصفياً ، في ما يتعلق بوعي الذات ؛ إذ أن من يستسلم كلياً للخوف لا يعود يعلم بأنه خائف؛ ونحن إنما نعرف أنفسنا عندما نقوم بإصلاح أنفسنا وهذا ما يعبر عنه المعنى الشائع لكلمة " الضمير " . ولكنني ، بغية مساعدة الانتباه الوصفي حيال تلك الحركة السامية باستمرار ، والمألوفة حتى لدى أبسط الناس ، أرى أن من المفيد ها هنا إبراز درجات ، سعياً لإيجاد ما يشبه المخطط الأولي أو القانون الناظم للإنسان المتوسط ، العادي ، وانطلاقاً من ذلك المخطط يمكن لكل إنسان أن يلاحظ لاحقاً الاختلافات وأن يقترب قليلاً من الفرد . وتلك هي الغلطة الاعتيادية لدى المتدربين على عمل ما إذ يبدؤون بالوصف ، قبل وضع جدول مناسب بالمفردات التي تطرحها الممارسة عليهم . والمفارقة في فن التفكير ، القائمة على وجوب الانتقال من الفكرة إلى الواقعة ، نجدها أيضاً في فن الكتابة ، إذ يتعيّن التعبير عن الفردي من خلال اللغة المشتركة بين الجميع . غير أن هذه المبادئ سوف تكون أوضح من خلال التطبيق .

وأقترح إطلاق تسمية " مزاج " – humeur – على ما هو محض بيولوجي ، وأعني بذلك الشكل ، والمتانة ، والميل ، والعمر ، كما أعني بذلك أيضاً الأفعال الناجمة عن المحيط الاجتماعي الذي يعدّل مجموع هذه الأمور ، بما هو مناخ ونظام . وغالباً ما يميل من يولي المزاج بعض الانتباه إلى الاعتقاد بأنه يمثل الإنسان بأكمله؛ على أنني لن أتورط عن طيب خاطر في دروب الجدل تلك ، لأن اللغة المشتركة تنبهني إلى وجود أشياء أخرى نقولها عن الإنسان ؛ فعندما أقول بأن " الإرادة " هي " المزاج " ، أعود إلى تصورٍ واحد يقترحونه عليّ بدلاً من تصوّرين . ولكن القاعدة السليمة في "الحكمة " تقول بالسير على آثار الفكرة القائلة بأن المفردات المختلفة تدل دائماً على تنوع حقيقي ، وأنه لا يوجد ،

باختصار ، أدنى غلط في القاموس المشترك المتداول بين الناس . وأنا لا أجد من قاعدة أخرى راسخة ومؤكدة في مجالات تتشابه فيها الأمور جميعها وتظل موضع أخذ وردّ .

قد يحلو لي أن أطلق تسمية " طبع " - caractère- على المزاج الذي يُعترف به ويُحكم عليه بأنه كذلك ؛ ولا يعني هذا أن الطبع ما هو غير مزاج ولا شيء أكثر ؛ إذ أن الطبع ، من جانب ، هو دائماً مزاج مبسَّط ، وتظل أسبابه الحقيقية مجهولة إلى حد بعيد ؛ فيمكن لرجل ما أن يعلم بأنه غيور ، دون أن يعلم على وجه الصحة ما ارتباط ذلك الاستعداد لديه بالمزاج ، بالمناخ ، وحتى بالنظام القائم ؛ ويكاد يكون من المتعذّر على المشغوف أن يكتشف من تلقاء نفسه ضرورة أن يحرم نفسه من القهوة أو لزوم أن يقوم برحلة ؛ ولديك من الجانب الآخر ، أن الفكرة غير المكتملة التي يبلورها الإنسان عن حقيقة طبيعته الشخصية لا يمكن إلا أن تسهم كثيراً في تعديل شخصيته ؛ فمعرفة المرء بأنه كسولٌ شيء ، وكونه من طبيعة كسولة شيء آخر . وعندما نقول بأن لأحد الناس طبعاً ما ، يمكن التخوّف منه ، أو يمكن الاعتماد عليه ، فنحن نعبّر عن أن لهذا الإنسان مبادئ وآراء حول نفسه بالذات ، وهي مبادئ وآراء يظنها صحيحة ، ويلتزم بها ، مثلما نرى غالباً حتى لدى المجانين . إن اللغة المشتركة ترفع دائماً الجنون ليحتل موقع العذر الكافي ؛ ونحن هنا حيال فكرة نبالغ في تناسيها ، وذاك لأن انطلاقات المزاج وقوة الغرائز ليست على الإطلاق مؤشرات على الجنون ؛ ولقد عثرت في مؤلفات طبيب مجهول على هذا المبدأ المليء بالمعاني : " كلما ازدادت غرائزنا قوة ، ابتعدنا عن الجنون ؛ وكلما عمل العقل على تعديل تلك الغرائز ، أصبحنا أقرب إليه " .

ويتمركز من فوق " الطبع " ، على ما يبدو لي ، كل ما هو على ارتباط برأي الآخرين ، أي بالحياة العامة . وليس مردّ هذا إلى أن رأي الآخرين لا يمارس سطوته على الطبع ؛ بل ذلك أمر لازم إلى حد بعيد ؛ فإذا ساد الرأي عن إنسان ما بأنه

مؤذٍ، أو كسول ، أو رعديد ، وقيل له ذلك أو أشير إليه توضيحاً ، فإن من شأن هذا الأمر أن يغيّر ذلك الإنسان تغييراً كبيراً . غير أن هذه الآراء الخاصة ، التي تمارس على وجه الخصوص داخل حلقة الأهل والأصدقاء ، لا تحدث تأثيراً بالطريقة التي يُحدثها الرأي العام ، الذي يتحدد خصوصاً وفق الأفعال العامة التي نقوم بها ، أي وفق الصنعة أو الوظيفة . كل إنسان يتحدّد هكذا ، ويتعدّل ، وغالباً ما يقوّم ويؤيَّد ، ودائماً ما يكون مدعوماً ومدفوعاً بتأثير ما ينتظر الآخرون منه . وهذا الفعل الذي يقوم به " المجتمع " يتعاضد مع " المزاج " ومع " الطبع " بغية تشكيل ما يجب أن نسمّيه " الفردية " . قد تبدو هذه الكلمة وكأنها قد جُرّدت قليلاً من معناها الطبيعي ؛ لكننا إذا فكّرنا بالترابط المألوف لدى الجميع ما بين كلمتي " فرد " و " مجتمع " سوف يتبيّن لنا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق . فالطبع لدى هـذا الفرد أو ذاك ما يزال أمراً غير محدد ، فيه من الضياع والتجريد ما فيه ؛ وإنّما يحتل " الفرد " موقعه ويتمركز فيه من خلال الصنعة العامة التي يمارسها ؛ وهكذا تظهر الاختلافات ، كما هو الحال بين كاهنين ، أو بين ضابطين ، أكثر تدرجاً وتعاوناً بكثير مما هو الوضع بين إنسانين لا على التعيين .

سوف أطلق ختاماً تسميه " شخصية " على ما يتغلب على جميع هذه الأمور وعلى ما يعطي حكمه عليها ، وهو ما يوجد منه دائماً وهج شرارة في داخل كلٍّ منا . على أنني سوف أورد الملاحظة التالية القائلة بأن " الشخصية " القوية تستوعب وتتمثّل بدلاً من الرفض . ومن هنا سوف أخلُص تخميناً بادئ ذي بدء إلى أن الشخصية القوية لا وجود لها إذا لم يستمر المزاج حاضراً في الأفكار ؛ فالأصالة مستقرّها هنا تحديداً ، بالإضافة إلى ذلك الجزء من العبقرية والذي لا وجود لـ " الإنسان " من دونه . قلّبوا أنظاركم فيما حولكم بحثاً عن الأمثلة ، وسوف ترونها ماثلة أمامكم . على أنني أخمّن أيضاً بأن أحداً لا يستطيع أن يرتقي

مباشرة من " المزاج " إلى " الشخصية " . فأولئك الذين يفتقرون إلى " الطبع " ، الذي هو على أي حال في وضعية الخضوع ، تكون شخصيتهم على الأرجح وكأنها بدائية ، دون أية هواجس ، دون أية شفافية أو تماسك ؛ بالمقابل فإن الذين قد يشتغلون مباشرة لإبراز مزاجهم وطبعهم ، وليس لهم من صنعة أو وظيفة ، سوف يفتقرون دائماً وأبداً إلى مرتكز أو بنية صلبة ، كما سوف يفتقرون غالباً حتى مع توافر الإرادة القوية ، إلى الثبات والتماسك .

حول المجموعات المتكاملة

أطلقُ تسمية " مجموعة متكاملة " على متوالية كلمات حسنة التنسيق تبعاً لمعانيها المتداولة ، أعني بذلك أن نجد فيها العلاقة ذاتها ، علاقة الحاوي بالمحتوى ، علاقة الأعلى بالأدنى ، علاقة التفكير بالطبيعة ، والمفردة الواحدة بالمفردة التي تجاورها . لقد خلّف لنا كونت مجموعة متكاملة من " العلوم الأساسية " التي أتاحت المجال لتقديم عدد كبير من الملاحظات الجميلة ، ناهيك عن الملاحظات التي جاء بها هو نفسه في ستة مجلدات ضخمة . وهذا ما يتطابق تماماً ، لحسن الحظ ، مع المجموعة المتكاملة في الكلمات الأربع : " مزاج ، طبع ، فردية ، شخصية " ؛ وذاك لأن المزاج بيولوجي ، والطبع بسيكولوجي ، والفردية اجتماعية ، والشخصية أخلاقية . والحال فالبيولوجي يتبع فيزياء وكيمياء الجسد بمقدار ما يرتبط الأعلى بالأدنى ؛ وبدقة أكبر ، فحركات " المزاج " ، والبنية ، والصحة ، أمور خاضعة لتأثير البيئة ذات المواصفات الميكانيكية ، الفيزيائية ، الكيميائية . أما البسيكولوجي ، الذي غالى كونت في الخلط بينه وبين البيولوجي ، فيحتل موقعه على أي حال بين البيولوجي والاجتماعي . وهكذا فمجموعتنا هذه تتقدم مدعّمة بأمتن تدعيم . ولعل هذه الجداول الحسنة التنسيق تقدم إلى المفكرين براهين من صنف مختلف كلياً عن البراهين الجدلية ، التي ظلت حتى اليوم الوحيدة التي يتم البحث عنها في المسائل المطروحة على المتجادلين . وإنما منشأ هذه الصعوبات غير المجدية الاعتقاد بوجود أفكار صحيحة أو خاطئة ، بينما أن الأفكار لا تعدو أن تكون مجرد وسائل؛ فلا قيمة لأية فكرة إلا بمقدار ما تساعد على التقاط جانب

الصواب في أي شـــيء . على أن هذه المســيرة من المجرّد باتجاه المحسوس ، والتي يطبقـهـا أبســـط مسّاح أراض ، تظل مجهـولــة لدى المتجادلين ، الذين تلقّوا تأهيـــلهـــم للإتـيان بصنف مختلف من البراهــين القائمة على تمرينات المرافعة أمام محكمة .

لنُعمِل التفكير إذن في " مجموعتنا " ذات المفردات الأربع ، مع الانتباه إلى أن تتابع تلك المفردات يتجاوب مع كرامة تتزايد طرداً . فالمزاج لا يعدو الحيواني ما لم يتخذ له شكلاً من خلال طبع ما ؛ ولا وجود إلا لما هو مزاج لدى الصغير في طفولته الأولى . أما الطبع فهو المزاج الذي داخله التفكير ، وبالتالي فهو أعلى قليلاً من المزاج ؛ وذاك لأن من الأمور ذات الشأن أن يرتأي المرء أنه يكون وسوف يكون غيوراً ، أو حقوداً ، أو حزيناً ، أو جباناً . وهكذا يكون للطبع سلفاً تأثيره على المزاج . علماً بأن الطبع ينحدر إلى مستوى المزاج ما لم تدعمه و . . . تباركه - تلك هي الكلمة المناسبة - الوظيفة الاجتماعية . على هذه الصورة ، لدينا من جانب الأدنى يحمل الأعلى ، بمعنى أنه يعطيه مضموناً ومادة ؛ غير أن الأعلى هو الذي يعطي الأدنى شكلاً وتماسكاً . أما الإنسان المنعزل ، مثلما أرادوا تصوير حالة روبنسون كروزو ، فما هو بعدُ من بني البشر ، وقد رأيت لدى داروين أن ناجياً من سفينة غرقى تم العثور عليه في جزيرة بعد عامين أو ثلاثة أعوام بات أقرب للحيوان منه للإنسان . لكن دعونا نعاين حالات أكثر انتشاراً وأفضل معاينة . فالإنسان الذي يقل انخراطه في الأفعال وردود الأفعال الاجتماعية يمكنه أن يكون ذا طبع ؛ بل هو لا تتجاوز حدوده هذا الأمر ؛ غير أن شخصيتنا في محاولتها الدؤوبة لتجاوز نفسها ، يُفرض عليها أن كل ما لا ينجح في التجاوز ينحدر ويهبط ، لأن الحركية الخارجية تقف له دائماً بالمرصاد وتستعيده إلى دوامتها . وقارنوا في هذا المجال بين غوبسك وغرانديه في رواية بلزاك . أنا لا أقترح سوى أمثلة على هذا النمط ، مشتركة لدى جميع المهتمين اهتماماً مخلصاً بمعاينة الأمور ؛ غير أن هذه الأمثلة

الخيالية تقرّبنا هي نفسها من الأمثلة الواقعية . فهذا غوبسك يعيش وحيداً ، ويزدري كل شيء ، وينتهي كالمتوحّش في قلب باريس . أما غراندية فيرتبط بـ " الإنساني " ، بالمعاشرة البيتية الودودة ، وبالصداقات ، وبنوع التجارة التي يقوم بها ، والتي تفترض وجود تبادلات وبعض الثقة . غوبسك ، إذا ما قورن به ، لا يعدو أن يكون نهّاب فضلات وحطام أدوات . والقانون الذي يتحكم بهذين الوجودين المختلفين للعلاقات مع المجتمع قوامه أن البيولوجي يسيطر دائماً على البسيكولوجي ، رغم الحوارات اللا مجدية للمرء مع نفسه بالذات ؛ وقد يمكننا معاينة هذا الأمر أيضاً لدى خوري أو لدى راهب ؛ لكأن السلطة الأخلاقية مفصولة عن هؤلاء ولا تجد سبيلاً للهيمنة عليهم ، وذاك نتيجة لغياب " الفردية " التي تلعب دور الوسيط . يبدو ذلك أقل شأناً لدى غرانديه ، لكنه بالقَدْر الكافي ؛ على أنه يقترب من " الفردية " بتلك الأحكام السوميرية – نسبة إلى بلدة سومير Saumur– التي تعكس له صورة بارزة عن نفسه بالذات لا يستطيع تغييرها بسهولة متى أراد ذلك . ويدخل في عناد غراندية أيضاً ما يدين به للرأي العام ؛ إنه يدين لذلك الرأي العام بأنه غرانديه . ولديك دومرسي ، تلك الفردية القوية ؛ ولكن التسامح مع الذات الذي يشكل لديه ما يشبه المبدأ الفوضوي في داخل ذاته يؤدي إلى ألا يرتفع بنفسه إلى مستوى الشخصية : وهذا ما يرينا كيف ينحدر ، في الأزمات ، إلى المستوى الحيواني . إن لوثر ، وكالفان ، وباسكال ، في مصاف أصحاب الشخصية ، من خلال التغلب على الفردية ، من خلال التغلب على الطبع ، من خلال التغلب على المزاج ؛ ولا تُلغى الفردية ، والطبع ، والمزاج ، لديهم ، لكنها تندمج ويتم تمثلها ، كما نشاهد في الأسلوب . والأمر ذاته لدى مونتيني أيضاً ، إنما بعناء أقل ، مع الرجوع أغلب الأحيان إلى الطبع وختاماً إلى المزاج العاري . أما الثلاثة الآخرون فمن أصحاب المزاج الصعب . إن مزاج سقراط ، وأفلاطون ، ومارك أوريل ، بقدر ما يمكننا أن نخمّن صعوبة ذلك المزاج ، يطبع دون شك بطابعه شخصية أقل قوة . ففي الفكرة التامة عن " الشخصية " لا

بدّ من وجود فضيلة صعبة ، كما هي فضيلة الأب بيرار . على أن جوليان ، بسبب افتقاره للفردية ، قد لا يكون أكثر من طبع ، بل ربما أقل من ذلك أيضاً ؛ إنه حيوان فيه سحر وفتنة ، وهذا هو المستوى الذي ينحدر إليه دائماً . أما الفكرة التي يمكن استخلاصها من هذه الملاحظات مجتمعة ، فتقول بأن " البسيكولوجي " الذي يطلقون عليه اسم " الأنا " ، هو دون شك أكثر الأمور تجريداً وأقلّها تماسكاً ؛ وهذا تفسير ما تكون عليه التحليلات دائماً من فقر عندما لا تتجاوز ذلك الحدّ .

حـول المـزاج

كان أحد جنود المشاة يردد : " ما عاد المرء يشعر بالخوف ؛ ما عاد المرء يشعر إلا بالرجفة " . يعني بذلك أن أولئك البشر التعساء ، من بعد تفكير وإمعان نظر في ذلك المستقبل المفعم بالتهديد ، وقد باتوا دون توقع أو حتى أمل ، وصل بهم الأمر إلى عدم اعتبار سوى الشيء الحاضر أمامهم ؛ ولا يعود الخوف آنذاك سوى قفزة ، أو تواري ، أو انبطاح الجسد ، أو هو الضغط القوي والخاطف للمتفجّرة . فهذا هو المستوى الذي يقع فيه " المزاج " ، بل هو حتى أدنى من ذلك ؛ إذ من المستحيل التقاطه وإدراكه كمزاج ، لأن التقاطه يعني التفكير والارتقاء به ؛ وإنما بهذه الحركة يصبح التهيّج غضباً ، أو أن الفورة تصبح قلقاً ؛ وقد يكون حكم آراء الناس على المزاج في غاية السوء ، وحسبما يصوغه الطبع وفق الحجج القوية ؛ فالتطيّر كمزاج ما يزال أدنى مرتبة بكثير من الحزن المبهم أو من القلق الذي لا موضوع له ؛ إننا نُعمل التفكير دائماً لالتقاط المزاج ؛ ولا نفعل ذلك حسب الطريقة الصحيحة ، وإنما بالأحرى بالبحث عن مضمون للآراء يتوافق معه . ولكن من واجب الحكمة تناول المزاج تناولاً مختلفاً ، وبادئ ذي بدء من خلال نظرية ، بحيث يمكن أن نفهم بأن المزاج لا يحتوي إطلاقاً على هذه الفكرة أو تلك ، وإنما يتأقلم مع الأفكار جميعها .

بغية تحقيق ذلك ، يجب تناول المزاج من خلال وجهه الآخر ، باعتباره مجرد حركة ، أو بالأحرى نسق حركة ؛ وها هو الاختلاف . فالحركة التي أقوم بها لصدّ ضربة لا تعدو كونها حركة ؛ غير أن الاستعداد ، وتحضير الضربة لمواجهة التهديد ،

والتقلّص والهياج اللذين يلحقان بذلك ، والتنفّس السريع ، وخفقان القلب ، هي جميعها تنتسب إلى نسق وتَوجُّه المزاج سلفاً . ونتفهم دون عناء بأن العمر ، والقوة، والعافية ، والتعب ، الهيكلية من جانب يقابلها حسن التدبير من الجانب الآخر ، أمورٌ من شأنها تغيير النسق والتوجه بحيث ينجرف زيدٌ مع التهيّج ، بينما عمروٌ يتملكه القلق ؛ وبهذا يرتبط المزاج بالميل ، والمناخ ، والصنعة . ولكننا نستطيع تشكيل فكرة مسبقة تجريدية حول أنساق متنوعة ، وهذا ما يجلو منذ البداية جلاء أفضل حقيقة المزاج خيراً مما يستطيع أن يقوم به مطلق حكم يصدره المرء على نفسه . ألا ولا يعلم الإنسان أبداً بما فيه الكفاية كم هو آلي ، وبالتالي كم يمكن التحكم به ، ومن طرفه هو بالذات .

السعال يمكنك التحكّم به إذا ارتأيت أنه آلي ؛ لكنك فور أن تضع فيه غضباً مقصوداً ، محملاً بذكرى واستشراف ، فإنه يتطور وفق هذا القانون القائل بأن التهيّج يحرّض الحركة وأن الحركة تفاقم التهيّج . وعلى العكس فوجود حركة أخرى تستبعد السعال ، كحركة البلع مثلاً ، يعطي فعالية مباشرة . يصدق الأمر ذاته على القلق ، الذي هو نوع من الهياج يتغذّى من داخله ، أو هو - إذا سمحتم- استعداد لا نهاية له ، ويمكن لأي فعل منتظم ، كشقّ الخشب أو عزق الأرض ، أو حتى مجرّد الغَزْل أو الخياطة ، أن يعطي فعالية مباشرة . لصدّ الغضب ، عليك بالنسخ ؛ ولصدّ الحزن ، عليك بالغناء . غير أن هذا الأمر لا يتمكن أحد من الإيمان به أبداً ؛ إذ يجب معرفته . إن وعود الجسد تقف في وجه العقيدة ، لأن كل نسق للحركة يقدم إلينا سلواناً مباشراً يضاعف من شأن الضيق ، كما هي حركة التقلب في الفراش لدى من لا يستطيع أن ينام . مختصر القول أن تحكّمنا بأجسادنا ذا طابع رياضي ، أعني بذلك أننا نحرّك أجسادنا حسب إرادتنا ، كأن نمشي ، نتوقف ، نجلس ، نتمدّد ، نرسم ، ننحت ، نرقص .

لكن ما تكون فكرة نسق الحركة ؟ سمتان اثنتان يجب ملاحظتهما في تلك

الفكرة ؛ الأولى أن النسق يحافظ على نفسه ويتم الالتزام به ؛ والثانية أنه ينتشر انتشار الإشعاع حتى يشمل الجسد بأكمله ؛ وهذا ما يشرحه شرحاً وافياً مثالنا عن السعال ، ذلك المثال البسيط والمعروف لدى الجميع ، حيث يؤدي بك السعال أولاً إلى أن تسعل سعالاً خفيفاً ، ثم سرعان ما تجد نفسك بعد ذلك وأنت تسعل وتهز معك الجسد بأكمله . ويحدّد هذا الصنف من العذاب طبيعة التهيج ؛ ومَن منّا لا يعلم ما يكون الحك ؟ والاندفاع نسق لا يقلّ سطوةً ، ويمكننا تعريفه بأنه تهيّج مشـتّت ؛ يمكننا معاينته بسهولة لدى الطفل اللاهي الذي تحرّضه حركاته الذاتية ؛ بل إن الحركة المكررة في بعض الأحيان ، كالضرب على يد زميل في سياق لعبة ، تمضي باتجاه الاندفاع ، وهذا ما جعلنا نقول المثل المعروف " ألعاب اليد ، ألعاب الوغد " .

أما القلق فهو في الوقت نفسه اندفاع وتهيّج ، لكن دونما حركة ، فلا شيء سوى انتفاضات صغيرة قسرية ، وهذا ما يترك تأثيره على التنفس وعلى القلب ، اللذين يصيبهما الاضطراب بدورهما فيستمران بتحريض جميع الأقسام الحركية ، ومن هنا الارتجاف الذي لا سبيل إلى تحمّله . يجب أن نقول أيضاً بهذا الصدد أن غياب الحركة الإرادية لا يتيح للتقلصات العضلية إزالة انقباض العروق الدقيقة بالتدليك القوي ، مما يؤدي لتحويل الدم إلى الأقسام الرخوة ، من أمعاء ، ومعدة ، ودماغ ؛ ويبدو هذا التأثير الأخير لافتاً إذ يصون ويوقظ نشاط إدراك غير متناسب مع الأشياء ، وهذا ما يجعلنا مهيّئين لتوقّع أمرٍ رهيب لكننا لا نعلم ما يكون . لكننا ها هنا نلمح بوضوح كيف يرفع التفكير المزاج ويشكله . أما التشنج فهو نسق أشد عنفاً ، حيث تنشدّ جميع العضلات حسب قوتها ، مجمّدة الجسد بأكمله ، وهذا ما يؤدي إلى توقيف الحياة ، كما نشاهد في حالة التصلّب الكامل . نعم ، ليست هذه الحالة عامة لدى الجميع ؛ لكن توجد دون شك أنساق جزئية من هذا الصنف ، كتشنج وتصلب الكتفين ، الذراعين ، الساقين ، حتى أثناء أداء الفعل ، وتكون

من أسباب الاضطراب في الحركات وفجاجة التصرّف . ونرى هنا أيضاً أن الحكم يستولي على حركات المزاج تلك ، ويجعل منها مادة للتفكير والإدانة ، فور اعتراف أحدنا : " أنا مضطرب " ، أنا فجّ الحركات " . وهو ما كان يمكن أن تخلصنا من حرجه حركات التهذيب ، التي هي دائماً وأبداً حركات رياضية منسّقة ، لو أننا اتخذنا قرارنا بالقيام بها ؛ هذا والبسمة هي خير سلاح نختاره للتصدي لكل نسق يحتل موقعه . ولكن هذه الأمور غير معروفة إلا قليلاً ؛ فالأخلاق لا تبتسم .

حـول الميـول

تقدّم الأخـلاط الأربعة المتحكمة بالميول مثالاً عن فكرة ما تزال مجرّدة ، لكنها صحيحة في توجهها ، ويمكن أن تصبح أغنى دون أن تتعرض للتحريف والتشوّه . أما أولئك الذين ما عادت لديهم الجرأة للوثوق بهذه الأدوات المتمتعة بالتقدير فيوحون لنا بأن في حوزتهم أدوات أخرى ؛ عظيم ، قل هاتوا ما عندكم !

إن الجهاز الحركي المؤلف من العضلات ، يحكمه قانون " الاندفاع " ، والذي بموجبه يسرّع كل فعل فعلاً جديداً ؛ هكذا يكون الفرار ، أو التعامل العنيف مع قفل مستعصٍ . والتدريب واللعب هما أدنى مراتب " الاندفاع " ، بينما " التهيّج " هو ذروته القصوى . فور سيطرة الجهاز الحركي . وهو ما يتم التعرّف عليه في الكتلـة العضلية ، ودفق الدم الغزير ، واستطاعة جهاز التنفس ، حيث يقوم التفكـير دائماً إثرَ وقـوع الفعل ويعود إلى السـبات مع همـوده . إن المنفعـة -البراغماتية- هي القانون الذي يوجه أصحاب الطبيعة الجسورة ، أولئك الذين يعمل تفكيرهم مع قبضتهم الجاهزة المتكوّرة . فهذا هو " الدموي " .

في مقابل الدموي ، من الواضح أن " الجملة العصبية " تُخضع عملية الضبط لتتوافق مع أبسط الأفعال الخارجية ؛ إذ ليس ما هو أبسط من ملامسة ريشة التلوين لبؤبؤَ العين ، لكن من الناس مَن طبيعتُه أن تزيل هذه الملامسة المرهفة على الفور جميع الاهتمامات الأخرى . تماماً مثلما يمكن لنغمة مرهفة أو لصرير باب تغيير جميع الأفكار . ومن هنا ذلك الاضطراب في المزاج الذي هو من خواص

" العصبي " ، والذي يجب ألا نخلطه على الإطلاق مع ثبات الصفراوي ، المهيّأ على أفضل وجه كي يعذّب نفسه بنفسه وفق ما لديه من إمكانيات . إن تفكير " العصبي " لا يتوقف كثيراً عند حدود ذاته ، لأنه دون ذاكرة كما هو حال العصب؛ وهو ، على العكس ، يوجه نشاطه إلى الخارج ، متعطشاً لاستقصاء واستشراف أدق التباينات ، وهذا ما يؤدي إلى الصيغ وإلى القوانين . إن " العصبي " يُعمل تفكيره في العالم ويعيش على الانفعال .

وها هو " الصفراوي " الذي يعيش على العواطف ؛ لكن نظراً لأن المزاج أدنى مرتبة بكثير من العاطفة ، فمن الواجب البحث في المجال البيولوجي عما يتطابق مع اضطراب الذات تلقائياً ، خارج نطاق أي فعل ، وهذا ما يحرك الحلم ، والذكرى ، والتأمل حول الذات والرجوع إلى الدروب نفسها . ها هنا يسيطر " الخيال " ، الذي يعبّر على ما يبدو لي من بعد إرجاعه إلى شروطه الدنيا ، عن سطوة الجهاز الإعاشي ، ليس من خلال الجوع والعطش ، المشتركين لدى الجميع ، وإنما بالأحرى عن طريق الأعضاء ، وهذا ما يجعل من الصفراوي ، الذي وُفّق بالتسمية التي أطلقت عليه ، لا يتوقف عن الإحساس بنفسه ، وبعيداً عن أن يكيّف نفسه تبعاً للانطباعات الوافدة من الخارج ، ها هو ، على العكس ، يعدّلها ويصبغها تبعاً لاستعداداته الخاصة به . وسيكون القلق النسق الخاص بأصحاب هذه الطبيعة ، المهمومين والقلقين بعض الشيء بصورة دائمة ، والذين سيواجهون شيخوخة صعبة ، بينما ، في مرحلة فتوتهم ، يمنح هذا المزيج من الاستقرار والاضطراب العواطف والعلاقات الإنسانية قوة تفوق الحدّ ، تستثير الحب وتصونه . في حين أن " العصبي " لا يكون متحمساً إلا لما هو جميل أو جديد . أما " الصفراوي " فيسكنه ذلك الحب الغني لذاته الذي يجعل تلك النظرة السوداء مُحبّبة، ويمنحها قوتها .

أما " اللمفاوي " فيتصف بالتوازن والإخلاد إلى الراحة ، والطفل ، في نموّه ، هو الأنموذج الأكمل عنه ، وكذلك الأم ، ما دامت تقوم بالإرضاع . هنا أيضاً يسيطر " جهاز الإعاشة " ، إنما من خلال وظيفته الرئيسية التي قوامها الاعتناء على حساب المحيط الخارجي . ولهذا السبب فالنمو يعرّف اللمفاوي أفضل ممّا يعرّفه السبات والسمنة ، فهذان ليسا سوى نمو متواصل ومرضي . تماماً مثلما أن السوداوي هو الصورة المبكّرة للصفراوي . ولعلّنا نحسن صنعاً ، بغية فهم اللمفاوي فهماً أفضل ، إذ ما أخذناه بعين الاعتبار في المقام الأول قبل سواه . إذ لا يقوم في جوهره على الرخاوة والكسل ، وإنما هو الطفولة الهانئة التي تجهّز كل شيء وتجمّل كل شيء ، والتي تواسي نفسها وتغفو باطمئنان . إن السّبات هو النسق الخاص باللمفاوي ؛ غير أن كل طبيعة تعود لتغوص فيه ، فتغتسل فيه وتتجدد .

تلك هي الوجوه الأربعة التي تخالط كل مزاج ، بحيث أن خليطة الأربعة تلك تنجلي فيها كل خليطة ثنائية ، من خلال اللون ، والشكل ، والموقف ، والحركة . إنما من الخارج دائماً ولدى الآخر ؛ لأنني لا أعرف المزاج العاري لنفسي إلا معرفة سيئة ؛ فأنا لا أؤمن بذلك . إذ تنشدّ أفكاري عن نفسي بالذات ، وتتحرك ، وتتلاعب بسراباتها ما بين مزاجي وأناي . فممّا هو أدنى في أناي ذاتها ، ووفق ما أعرف من الآخرين ، يجب عليّ أن أتبنّى مزاجي الخاص وطبيعتي الخاصة، تلك الطبيعة المستقرة ، والمقاومة ، والقابلة للتشكيل . وما لم أتوصل إلى هذه المقومات الراسخة ، لن أكون قادراً على أن أفعل أي شيء بأناي . ألا فالحذر الحذر من الذي يخضع ويقبل .

الفــرد

من السهل جداً أن نلمح في كل إنسان علاقات الصنعة والوظيفة ، وكيف تتوافق مع " الطبيعة " البيولوجية والواثقة التي تشكلت لديه بتأثير كتلة المادة التي تشتغلها يداه ؛ القاضي يُبدي الضجر وسوء الظن ؛ أما الضابط فيضفي على نفسه الأهمية . من السهل تعقّب هذه المظاهر ؛ لكن الأمر يصبح أصعب قليلاً حين الانتقال من الخارج إلى الداخل من خلال ملاحقة الفعل والموقف إلى حد ما . أضف إلى ذلك ، وكي لا ننحدر إلى مستوى الملاحظات الصغيرة التي غالباً ما تختتم كل شيء بالضحك ، من المناسب أن نعاين الحياة الاجتماعية في نشاطها المتواصل ، الذي هو تربية لا يمكن لأي إنسان أن يهرب منها .

ويطيب لي أن أقول وأعيد بأن الإنسان لا يتشكل أبداً من خلال التجربة المنعزلة . وعندما قد تقتضي منه مهنته أن يكون دوماً على وجه التقريب وحيداً في تعامله مع " الطبيعة " غير البشرية ، فمن الصحيح على الدوام أنه لم يكبر وحيداً ، وأن تجاربه الأولى مستمدة من البشر ومن النظام البشري ، ذلك النظام الذي يرتبط به ارتباطاً مباشراً في بادئ الأمر ؛ الطفل يعيش مما يقدم إليه ، فعمله هو الحصول على الشيء وليس إنتاجه . نعم ، ونحن جميعاً نمرّ بتلك التجربة الحاسمة التي تعلّمنا في آن واحد الكلام والتفكير . أفكارنا الأولى كلمات تُفهَم وتكرَّر . ويبدو الطفل كما لو أنه مفصول عن مشهد " الطبيعة " ، ولا يباشر أبداً الاقتراب منها بمفرده ؛ إنهم يدلّونه عليها ويسمّونها له . إذن ، هو يعرف كل شيء عبر النظام البشري ؛ وهو بالتأكيد يستمد من النظام البشري الفكرة التي سوف يحملها عن

نفسه ، لأنهم ينادونه باسم ، ويدلّونه على نفسه بالذات ، مثلما يدلونه على الآخرين . أما التعارض بين الأنا واللا أنا فمردّه إلى النظريات التجريدية ؛ والتعارض الأول بالتأكيد هو بين الأنا والآخرين ؛ وهذا التعارض علاقة متبادلة ؛ إذ أنني أجد في الآخر شبيهي الذي يُعمل تفكيره بي مثلما أُعمل تفكيري به . وهذا التبادل ، الذي يتمّ بادئ الأمر بين الأم وطفلها ، يتم نقله رويداً رويداً إلى الأخوة ، إلى الأصدقاء ، إلى الأصحاب . أسوق هذه الملاحظات للتذكير بأن جميع البحوث حول " الطبيعة " البشرية يجب عليها الالتزام التزاماً كبيراً بالوجود الجماعي ، الأمر الطبيعي إلى أبعد الحدود لدى كل إنسان بالغ ، وهو الممكن الوحيد في جميع الحالات لدى كل طفل .

غالباً ما قام الكتاب بتحليل التجربة الحاسمة في رأيهم ، والتي تجعل الطفل يتعرف على حدود جسمه الخاص . أنا أخبط على يدي ، كما أخبط على المنضدة أيضاً . غير أن الطفل يبدأ بملامسة الجسم البشري قبل ملامسة أي جسم غريب . هذا ، وإني لأعاين تجربة أكثر إثارة في مناحرات الأطفال التي أستخلص منها فكرة وجود كائن مشابه ومعارض لي لا أؤذيه إلا كما أؤذي نفسي ، وهو يبادلني لكمة بلكمة . فذاك فعل غير مباشر أوجهه على نفسي بالذات ؛ وهي تجربة حافلة تكشف لي حدودي وحدود الغير . أما الفوران المسعور في تلك المناحرات فمردّه دون شك ، مع غضّ النظر عن الأسباب الأخرى ، ذلك الجهد الساعي إلى إيلام الآخر مثلما أتألم أنا بالذات ، مع الإلحاح على رؤية علامات ذلك الألم ؛ والعلامات المطلوبة هي الكلمات . يكفينا إيراد هذه التجارب الفريدة بخصوص عدوانية ، غالباً لا تقاوم ، لكنها دائماً تلين بالأضاحي أو الصلوات أو التهديدات . وعلى أي حال فنحن نلاحظ بأن أقل الناس ارتقاءً لا يبدو عليهم الاهتمام بأي موضوع للتفكير إلا ما كان على علاقة بالحياة العامة وما فيها من طقوس احتفالية ، وجميع العلاقات ضمن إطار المجتمع ، والتشلّلات المختلفة ، والوظائف ،

والحِرَف ، تكتسب في أعينهم قيمة الدين . ويكفي أن نفهم بأن الأديان هي من الوقائع الشاملة ، ذات السمات الثابتة ، كي نستنتج بأن الأفكار الأولى ، التي تحدّد جزئياً بصورة طبيعية جميع الأفكار الأخرى ، هي دائماً مأخوذة من البيئة البشرية . أضيفوا إلى هذا أن كل فكرة هي في بدايتها مشتركة وتدخل في بدايتها إلى أناي كرأي عام ، وليس كحقيقة . من خلال هذه الملاحظات سوف تبدؤون بفهم الاستطاعة التي تحصل عليها طبيعياً في أعماق كلٍّ منا الفكرة التي يشكلها أحدنا عن الآخرين . ولا يمكن الاستهانة في سياق حياتي بشعوري بالإلزام المفروض عليّ كي أتصرف ، وأقول ، وحتى كي أفكر كما يُخيّل إليّ أن الآخرين ينتظرون ذلك مني ، ثأراً أو غفراناً .

الأنــا

كل شيء يتغير في أناي تحت نظري وبواسطة نظري . ونودّ الآن أن نشرح كيف أتناول نفسي وكيف أتعرّف على نفسي ، في ذلك المضمون الذي يمكن فيه لأكثر الأحلام عبثية أن يظل مُرتبطاً بأكثر الإدراكات تعقّلاً ، حيث تقاوم الوساوس الغيبية على قدر ما تقاوم الأفكار ، حيث تُنسى ذكريات عديدة ، وعدد كبير آخر منها تزول عنه ألوانه ، حيث يتغيّر كل شيء ختاماً بفعل الزمن والعمر . غير أن واقع الأمر أن المشكلة قد لا يكون لها أي معنى ، وأني لست مضطراً لإيجاد نفسي ، وذاك لأنني لا أستطيع أن أضيّع نفسي للحظة واحدة . فكل تفكير ، غامضاً كان أم واضحاً ، حول العقيدة ، حول العواطف ، حول شيء ما ، حول رؤية ما ، حول قرار ما ، حول تردد ، رفض ، تشكك ، ذكرى ، ندم ، رجاء ، خشية ، ما كان صحيحاً أم غير صحيح ، دائماً أم غير دائم ، في الحلم أم في غير الحلم ، موضوعه الذي لا يحول ولا يزول هو " الأنا " ، أو إذا أردنا تعبيراً أفضل ضمير المتكلم المستتر وجوباً في الفعل - الـ Je- . وعندما أختلق بإرادتي مجرّة ما غير معروفة لا يكون لي فيها حضور ، عالماً ما آخر منفصلاً ، ماضياً ما من قبلي ، مستقبلاً ما من بعدي ، فموضوع هذه الأفكار هو دائماً أنا . فأنا الذي أُعمل تفكيري في كل ما هو مادة للتفكير ، في كل ما هو كائن وما يمكن أن يكون ، في الممكن والمستحيل بالكامل ؛ ولهذا لا يمكنني التفكير " أنني غير موجود " ، كما أحسن ديكارت جلاء هذا الأمر . ذلك هو القانون الأسمى لكل منطق ، نظراً لأن أي تفكير ، حتى ما كان غير منطقي ، فهو يفترض وجود المنطق ؛ أنا لست غير واحد أحد ؛ إذ لو

كنت اثنين ، فكلا الاثنين هو أنا ؛ وعندما أنشطر يتبيّن لي أفضل فأفضل أني لست غير واحد أحد ؛ إذ هذا أنا وذاك أنا . وأظلّ ما أنا عليه ، إذ لو كنت هذا ، ومن ثم ذاك ، فأنا دائماً أكون هذا ، ومن ثم ذاك . ولن أستطيع أبداً أن أعرف أنني شخص آخر ، إذا لم أكن أنا ، بنفسي ، هو ذلك الشخص الآخر . ألا وإنني موضوع كل تفكير . وكل معرفة ، كل خبرة تشكل على هذه الصورة كلاً متكاملاً مع كل معرفة وكل خبرة ؛ وسيّان أكان هذا من الماضي أو من الخيال ؛ فكل أمر بدايته وختامه مني ومن أجلي . ويمنعني هذا الشكل المترابط من قطع التجربة ، من بتر الزمن ، من إعمال التفكير في " عالمين " . فها هما الزمنان يسرعان بالانطلاق من زمن واحد ، وها هما " العالمان " ينطلقان من عالم واحد . فأصبح بإمكان كانط الفذّ أن يخط بريشته من بعد أن عاين هذه الضرورة المنطقية ، التي لا يمكن لأحد تجاوزها ، حيث الفكرة المهووسة القائلة بوجود اثنين من " الأنا " سرعان ما تتكشّف عن " الأنا " الوحيدة التي فيها ومن أجلها تكونان اثنتين : " بهذا المبدأ ترتبط المعرفة البشرية بأكملها " . وبالتأكيد ، فانطلاقاً من هذا المبدأ يجد أشد الأذهان تدقيقاً وقلقاً طمأنينة رائعة بوصف تلك الوحدة الشكلية للتجربة والتي لا تسمح أبداً بأن يكون أي شيء منفصلاً ، ما كان متزامناً ، أو ما كان سابقاً أم لاحقاً في الزمن . على أنني لا أعتبر هذه التأملات الجميلة في المبادئ موضوعي المباشر . فأنا إنما أريد التوقّف عند " الأنا " ذاتها ، وهي في متناولي كما أريد . علماً أنني في واقع الأمر ليس في متناولي أي شيء . فهذه الصيغة التجريدية الجامدة في قولة " أنا أفكر " لا تبالي بمضمونها : إذ هي تتضمن كل شيء . فأغرب الأحلام بعداً عن أناي هو من أناي ما دمت أتذكره . فليتكيّف حلمي مع إدراكاتي الحسية حسبما يتيسّر له ؛ إنه بدايةً من أناي ، ولولا ذاك ما كان لدي أي تفكير به . ولهذا يجب القول بأن " الأنا " البسيكولوجية تجريدية ولا تقدر على شيء . فيمكنها أن تناقض نفسها أو أن تتلاعب بنفسها ؛ ولا تتهدد الوحدة الشكلية أبداً ولو للحظة واحدة ؛ وبالغاً ما بلغتُ من البعد عن نفسي فأنا نفسي من أكون تلك " الأنا " البعيدة والأنا

الأخرى . فها هي " الأنا " الحقيقية تسارع إلى استعادة " الأنايين " الاثنتين . والوحدة تتم من قبل أن تكون مفهومة . هذا القانون النهائي ، إذ ما عايناه دون انقطاع ، يشرح لنا " المثل " الأفلاطوني ، الذي يشدّ الأشياء دائماً إلى بعضها رغماً عنها ، ويمد خيطه بادئ الأمر ، فارضاً قانونه على ما هو بين بين كي ينتظم جهد المستطاع . لكن نظراً لأن " الأنا " مستحيلة البتر على هذه الصورة ، مسبقاً مستحيلة البتر ، ممتدة مسبقاً إلى ما وراء الممكن ، فنرى بوضوح وجود اختلاف كثير بين " الأنا " و " الشخصية " . إذ يتراءى لي بأن من يسعى جاهداً للبقاء على وفاق مع نفسه ، يفرض على نفسه شيئاً ما أكبر من " الماهية " المجرّدة الموجودة في قولة " أنا أفكر " .

" هكذا أنا ؛ هذه طبيعتي " ، هي تفكير صحيح على الدوام ، مهما كانت غرابة المضمون تماماً كما نرى في الأهواء ، حيث يكون الإنجاز بالكلام ، حيث يتم التغيير بالخطابات . وتلك هي حقيقة المسرح ، حيث الشخصيات ، تصبح غير ما هي عليه ، من بعد ما تكون قد قالته .

جان - جاك روسو

يجب الإمساك بـ " الشخصية " في عقر دارها . من حيث تحكم على كل شيء وتسيطر على كل شيء . وحيث يمكن طلب المعونة من ثلاثة مفكرين ، أفلاطون ، وروسو ، وكانط ، والذين يضيع حق روسو بينهم . ألا فروسّو بليغ ، مؤثر ، مقنع ، صادق . وقدعرف تجربة الخطيئة وتأنيب الضمير ؛ فهو يتسلّح ويتجمّع ليتصدّى لنفسه بالذات ، دون أي مسعى لطلب النجدة من الخارج . لقد اهتدى إلى الوجدان والحرية سوياً ، وإلى الحركة الصحيحة للإيمان . فيا له من تأكيد مشرق ، سرعان ما راجت شعبيته حيال مواقف الرفض في عصره وفي فكر المدرسة الطبيعية التجريدية . غير أنه دون براهين ولا أسهل من دحضه . وما أضحك ثقات الفقهاء هو قوله بأن الوجدان يفترض فيه العصمة لدى مطلق إنسان يودّ صادقاً الحكم على نفسه . ماذا ؟ علماً أن الواجبات جميعها يكتنفها الغموض ، والالتباس ، وتظل موضع أخذ وردّ ؟ على أن الفكرة كانت صحيحة وقوية . لكن الوصول إلى مركز الفكرة والحرص على عدم ضياعها يقتضي الالتزام ببعض التصورات عامة ، ودونما أي انزلاق جانبي . فنحن بادئ ذي بدء لا نستطيع أن نلزم إنساناً ما بأن يكون عالماً أو حتى مرهف التفكير ، كما يجب أن نقبل بان الخطأ ليس جريمة ؛ ناهيك أن من المدهش ، وحتى المعيب في نظر البسطاء ، كون الأعلم من بني البشر والأدق تفكيراً لا يتوافر لديهم دائماً ذلك الوجدان المستقيم ؛ وأن الإنسان هو الحكم الوحيد على نفسه لأن الأفعال ملتبسة ؛ إذ يمكن للإنسان أن يكون عفيفاً عن ضعف وشريفاً عن جبن . وأن المسألة الأخلاقية على هذه الصورة

هي ما بين الإنسان ونفسه ، ما بين إرادته وطبيعته ؛ وأن الفضيلة تقوم على قهر الشهوات لا غير ، وأن الرذيلة هي في الانجراف مع الشهوات . وأن أحداً لا يمسك من الخارج بهذه الصراعات ، ولا بهذه الهزائم ، ولا بهذه الانتصارات ، لكن بالمقابل فذلك الذي يتعرض لها يحسّ بها إحساساً مباشراً وحميماً حالما يتخلّص ممّا يشدّه إلى الخارج غفلة ولهواً ؛ إذ لا شيء أكثر حضوراً في إحساسنا من عبوديتنا الخاصة . إنهم يمتدحون شجاعتي ؛ أما أنا فأعلم بأني عانيت ما عانيت في السير على دروب الخوف . ويقولون بأني إنسان شريف ، لكن مثل ذلك الجسد المقيت ، أعرفه حق المعرفة . ولاضطراب الشهوات مذاقه اللذيذ ، إذا أمكننا قول ذلك ، في جميع وجوهه المختلفة . وأما الندم والعار فيبقيان على مرّ الأيام . والصحيح أن البشر لا يريدون التفكير بهما وأننا لا نفكر إلا إذا أردنا ذلك حقاً وصدقاً . هنا تكمن حقيقة الغفلة ، النظرة العميقة لدى باسكال ، ولكنها لديه تحرّفت بميثولوجيا أُخذت بمعناها الحرفي . إذن ، يحتمي الإنسان بآراء الآخرين ، فيطيش صوابه بالإطراء ويهرب من وجدانه الخاص . وليس إلا أن يشاء الهداية كي يهتدي .

نحن هنا نمسك بالفكرة الأخلاقية الجوهرية . وجاء كتاب " إميل " مؤشراً على انبعاث " العاطفة الأخلاقية " ؛ ألا فذلك ما سعى إليه " حبر السافوا " جهد السعي . لكن هناك أيضاً بعض ما يخيف لدى ذلك المعتكف ، وأنا أتفهم حنق ديدرو ومن لفّ لفّه من أخلاقيي المجتمع . فالفكرة التي تبعث فيهم الخوف ، هي فكرة " الاستقلالية " . ومن الصعب صياغة ودعم الفكرة القائلة بأن كل ما ينبع من الإرادة خير وأن العبودية الداخلية هي الشرّ الأوحد . ماذا ؟ إذا ما قال لي الشاب الذي عُهد به إليّ : " أريد أن أكون جاهلاً ومتمرّداً " . فيجب عليّ تأييده واستحسان ما يقول ؟ على أن الجواب هو التالي : " الأمر منوط بمعرفة إن كنت تريد ، وماذا تريد ؛ فأنت وحدك من تعلم ذلك ؛ وإذا كنت تريد فكل شيء على ما يرام " . لكنهم لا يجرؤون على تفكيك الروابط ؛ وهم يخشون الأفعال . ألا فهذا

هو الافتقار إلى الإيمان . ولنتفق بأن هذا النظام التربوي يمكن أن يؤدي إلى تغيرات ضخمة؛ ومن هذه الخشية يأتي دون شك ذلك الحمق المسعور المنتشر كثيراً حيال أولئك الذين يؤمنون بأن الضمير هو الحَكم الأخير والمطلق السيادة . عليّ أن أؤمن بأن التخوّف من الثورات أقل قوة لدى معظم البشر من ذلك الخوف الذي يحملونه حيال حكمهم الخاص على أنفسهم ، من بعد سيطرة احترام الرأي العام عليهم لسنوات وسنوات . وعلى سبيل المثال فما يحيد بالعديد من الناس عن محبة السلام، هو تخلّيهم عن وجدانهم حيال وجه " الحرب " . وإذا لم نمض بأفكارنا إلى هذا المدى ، آخذين بعين الاعتبار الآراء العامة الإلزامية في عصرنا ، فلن نتفهم تلك السلسلة الطويلة من الاضطهادات ، ولا ما كان روسو قد عوقب عليه . نعم ، والتعصب غالباً ما يُساء فهمه ، أما فولتير فكان يسدّد إلى جانب الهدف ؛ إذ التعصب بدايةً ما هو غير حنق مسعور للمرء على نفسه .

غوتـه

العظمـة التي اخـتص بها غـوته دون أية رابطة مـع القوة المادية ، والتي بذلك تحـديداً تكاد أن تكون خـارقة ، كـان مصـدرها ذلك " الحكْم " المعتكف والحـر . وهذا أمر نادر ، وموضع تبجيل ورهبة . ومتى ما مارس إنسان ما تلك السلطة الملكية ، فهو يحسن التعامل مع تحتياته دون عناء ، إذ لا ينصرف اهتمامه دون شك إلى تغيير تلك " التحتيات " وإنما بالأحرى إلى المحافظة عليها في وضعيتها التحتية المتخفية . كلا ، هو لا ينزل إلى تلك الأغوار . وحينذاك تنجلي الصغائر للعيون الناظرة ، إنما في مواضعها بالضبط ، كالمعاندة مثلاً في موضوع تجربة الموشور ، أو أن يكون المرء من رجال حاشية البلاط ، أو أنه لا يطيق لابسي النّظارات . فـهذه الأمور تؤخذ كما لو ضمن كتلة صلبة ، وفي النقطة الأعلى يوجد النور ، كما في المنارة . لكن كم هو أصعب إيجاد الأساس والمستقر في ذلك الصرح البشري الحسّاس والمتحرك . في ذلك الأنموذج الرفيع المزايا ، يجب الاعتراف بتلك الحكمة الأرضـيـة التي تتكيف مع التنظيم الأدنى على عـلاّته ؛ وهذا مـا يـحـرفنا بـدايةً عن عبادته . في هذا الكفاية ، شرط أن نتسامى انطلاقاً من تلك النقطة . ففي فن الحياة ينطوي فن قبول بعض النقائص التي تظل على صغارها بنتيجة هذا الإهمال ؛ بينما يحسن الغرور تزيينها وتنسيقها . كما هي الحالة التي تبالغ فيها بتنسيق وإعادة تركيب ما هو أدنى ، وذلك عبر ترتيبات صغيرة ؛ فهو حينذاك في وضع غير ثابت، شأن تلك التجريدات الميكانيكية ، التي تقدم أكداساً من سقط المتاع ، لمجرد دعم قضية صغيرة . مختصر القول ، فمعرفة العَرَج إنما يدل على حكم عظيم

الشأن ، إذا كانت إحدى الساقين أقصر من الأخرى ، وكذلك انطلاقاً من أن الساقين المتساويتين طولاً فيهما ضمناً نوع ما من أنواع العَرَج ؛ إذ متى لم يكن لأي شيء من كفاية ، فيجب أن تكون الكفاية في كل شيء .

إذن ، هذا الصنف من التفكير يمضي صاعداً باستمرار ولا يعاود النزول أبداً. وينبغي دون شك أن نطلق اسم " الشعر " على تلك الحركة المتجهة من أسفل إلى أعلى ، والتي تُسند الأفكار على الطبيعة ، محولةً بذلك كل مصادفة إلى جمال في البداية وإلى حقيقة في النهاية . وما أنقذ غوته من الفضائل المحدودة هو بالتأكيد ذلك التحرر القريب كل القرب من " الطبيعة " والذي يجعل من كل شيء دَرَجاً للصعود . لكن لندع غوته الآن وشأنه واقفاً بكل صلابة وحزم ، ولننظر في حال أولئك الصغار من بني البشر والذين يظهرون مباشرة صغاراً لكل من أحسن استخدام نظره ، إذ هم متلهّفون خصوصاً للارتقاء والبروز وليس لتغيير أنفسهم . " الشعر " والنعمة متوافران لدى كل فرد بيننا . لكن هنا ، كما هو الحال في أي موضع آخر ، حَذَار من شطب الأشياء بتهور . إذ ليس لديكم ما تضعون مكان ما تشطبون ، فتنبهوا جيداً إلى ما تفعلون . تدربوا إذن على هذه الفكرة ، المألوفة لدى جميع الفنانين ، والقائلة بأن على المرء أن يدبّر أموره بما بين يديه . وكل فرد من صغار الناس أولاً لا يستطيع تدبير أموره إلا بما بين يديه . لا تدمّروا ، بل ارفعوا صرح البنيان . تماماً كحال متسلّق الجبال الذي لا يتأفف من كل صخرة ، وإنما يصنع سلّماً ويرتقي كل شيء ، كما كل ما في الطبيعة ، ولكنه ارتقاء واثق ، أي مسيرة ظافرة لذلك الطموح السامي لدى " البشر " . كل شيء يمكن أن يكون ذا منفعة ، بشرط أن يكون طبيعياً ، وليس مستعاراً . تماماً كما تبرهن الكتابة ، التي تقاوم ما وسعها ذلك ، لكنها تُوافق بين الطبيعة والأنموذج ؛ إذ بالكتابة الرديئة ، تُصنع الكتابة ؛ وبالكذب تُصنع العفة ؛ وبالمصادفة ، التورية ؛ وبالقسوة الشجاعة؛ وبالكسل التواضع ؛ مثلما يصنع الشاعر التفكير بواسطة القافية .

فلنحافظ إذن على هذه الاختلافات الطبيعية ، على هذه التنويعات التي يُبدي ظاهرها الشر كلّه ، لكنها في حقيقتها الثراء الذي ما بعده من ثراء . بدلاً من التسفيه والشتائم ، عاينوا وتأكدوا . إذ ما هو أدنى ما هو سوى مادة ؛ وإنما يجب عليكم إيجاد الشكل ، كحال عباقرة الريف الذين ينحتون الجبال . مختصر القول ، ليكن الطفل قدوة البالغ ، وليكن البالغ الطفل المتحرر . وهكذا فلا تصحّحوا إلا ما كان غلطاً ؛ ولا تنسبوا الغلط إلا لما هو من الخارج ، ولما هو غريب عنكم . ففي كل عمل ، للذات أو للغير ، يجب ممارسة التخمين الحدسي كثيراً ؛ وليس الصعب هو دائماً الأسوأ . غوته دون سواه سوف يختتم هذه الخاطرة قائلاً : " يجب على المرء أن يكون عتيقاً في صنعته كي يتفاهم مع غيره على ما يجب تنحيته جانباً " .

خاتم جيجس

" لعل من الصعب وجود إنسان من متانة الخلق الفطري بحيث يحافظ على (العدل) ويمتنع عن الاستيلاء على رزق غيره ، لو استطاع أن يفعل ذلك دون أي قصاص " . لكن تعالوا نعاين دون تهافت هذه الحكاية الخرافية المرعبة . فالحديث عن التملّص من القصاص ليس بكبير الأهمية ؛ ألا فهناك ما هو أعظم ؛ ألاّ يعلم الآخرون بما تقترف ، وحتى دون أن تنالك الشبهة على الإطلاق . بل تعالوا نفترض كما يريد أفلاطون بأن الإنسان الذي يسرق ويقتل يمكن أن يلقى الثناء على عمله ذاك بالتحديد ، وها هو من بعد ذلك أمام ضميره لا غير ، وها هو جرس الخطر يجعله يحذّر نفسه وينهى نفسه بنفسه ، علماً أن لا شيء من الخارج يهدّده أو ينهاه . لذا فإن ما يرعب في تلك الحكاية الخرافية ، حسب رأيي ، هو أن جيجس لا يعرف التردد ولا يناقش وضعه إلا كي يتأكد بأنه فعلاً قد اختفى عن الأنظار بفعل ذلك الخاتم المسحور ؛ وها هي النتيجة دون إبطاء : " فكلما أدار فصّ الخاتم نحو الداخل " إلخ ؛ على أنه بمجرد أن عرف قدرته ، اغتنم أول فرصة ، فأسرع ، ومارس الخداع ، وقام بالقتل ، وها هو يصبح الملك . فن السرد لدى الراوي لا يمكن لأحد أن يجاريه ؛ ويجب القول بأن أنموذج تلك الحقائق الفظة إنما نجده في طريقة الحكايات الشعبية ، التي يتوجب فيها بداية أن يُنظر إلى ما يدهش وما يصدم على أنه إنذار وتحذير . وليس في الحكاية من خداع أكثر مما في الغناء .

هذه هي إذن صورتي الحقيقية التي يرسمها لي الحكيم ؛ فذلك البطل المتحفز والذي شدّ عزيمته بمجرد أن تخلص من كل خوف ، أسرع لا يلوي على شيء نحو القوة مستخدماً جميع الوسائل ، مثلما يسحق المرء نملة أو شرنقة . لكن من يعلم ؟ فالشهوات تمضي دون تردد إلى غايتها ، وبكل سرعة ؛ ولعل النجاح يواسي

ويُسْلي كل شيء . لقد بيّنت الحرب بجلاء أن العوائق البشرية ليس لها من حساب كبير بمجرّد أن يتخلّص المرء من اللوم . ولا غير الإنسان الذي هو على عجلة من أمره ، وحتى بسبب قضايا صغيرة ، من يخاطر بحياته دون أن يبالي ؛ على أن ذلك الحاجز الذي يردعه عن الصعود إلى قطار بدأ انطلاقه ، يضعه حيال ما كان يجب عليه أن يفعل . ولولا ذلك الحاجز ، لما كان ليريد ذلك أبداً ، بل كان على العكس سيمضي عَدْواً باتجاه تلك الفائدة الطفيفة ، دون أن يبالي بأمنه الشخصي أو بأمن الآخرين . كما أن القائد العسكري لن يتردد في الغالب ، متى علم أنه لن يلومه أحد إذا ما أَمر بقتل ألف رجل . إذن ، لا أهمية تذكر لاكتساح إنسان يعترض سبيل إنسان آخر ، إذا كان المديح نصيب هذا الآخر ، ويمنحه الغفران سلفاً ، أو إذا راح اللوم أو الشعور بالعار يخزه كما المهماز . وإذا ما عرفت في نفسك الإنسانية والإنصاف ، فعليك أيضاً تمجيد القوانين التي هي من وراء ذلك الأمر . إذن ، من واجب أي منا أن يرميَ الخاتم إذا ما حصل عليه .

نعم ، كل واحد منا لديه ذلك الخاتم . هنا نتبين عمق أفلاطون ، الذي لا يجاريه أحد على الإطلاق . إذ كل واحد منا حرٌ في ممارسة التفكير ؛ وهو غير مرئي ، في عالمه الداخلي . فهو يستطيع بادئ الأمر إنكار القوانين والأعراف ، وأن يتعهد بألا يلتزم إلا بإرادته الخاصة . لكن ، لا ، على الإطلاق ؛ وها هو يرمي الخاتم بعيداً . فلا يكون التفكير على هذه الصورة ؛ وإنما التفكير هو مراعاة تفكير الآخرين ؛ إنه الاعتراف بتفكير الآخر وإرادة التعرف على الذات في ذلك التفكير . ويجب على المرء أن يقول لنفسه بأن الآخرين ، على أي حال ، ليسوا على تلك الدرجة من الحماقة ، وأنه توجد دائماً حقيقة ما يمكن تحصيلها في تلك الحكايات الساذجة مثلما هي عليه حكاية جيجس تلك ؛ إنّها بسذاجتها تلك تتجاوب تجاوباً رائعاً مع ما تريد إفهامنا إياه . وفي هذا ما فيه من الاحترام ؛ فأنا أريد أن أفكر كما لو كانوا يرونني وأنا أفكر ؛ مع قارئي أضع نفسي أقصى ما أستطيع أن أضع نفسي بعيداً عن فكرتي الأولى ، ووفق كلمات أشد القراء جهلاً ، شاقاً طريقي خطوة خطوة مع تلك الصحبة ؛ مبيناً نفسي على حقيقتها دون فضائح ؛ متوافقاً في داخلي معهم ؛ مستخدماً لغتهم ، دون قسرها أبداً أو تحريفها ؛ مستخلصاً تلك

الحكمة المشوَّشة ؛ بكل حذر ؛ دون أن أشدّ أي خيط قبل أن أعلم من أين مصدره؛ فهل من تفكير لأيٍّ كان خارج إطار ذلك الحذر ؟

تنتسب هذه النظريات إلى النضج وإلى الخبرة . وهي تفترض أننا قد عجمنا عود الضعف البشري ، وعود قوة الشهوات ، خاصة في ذروة النشوة أو في الدهشة الكبيرة . من الصعب الإقرار ، لكننا في النهاية يجب أن نصل إلى الإقرار بأن الضغوط الاجتماعية سرعان ما يُحكم عليها بأنها اعتباطية ، غير أخلاقية ، على عكس ما تشتهي كرامة الإنسان المفكر . ومن لا يلاحظ بأن الشهوات تدفعنا إلى ذلك الموقف ؟ إن حصة الشهوات في هذه اللعبة من الصعب حسابها ؛ وأما الانضباط فلا يُلزم " الحكم " ، بل هو على العكس في أغلب الأحيان يرشده ويجعله يلتف حول الأمور ويعاينها بالتفصيل ، ولهذه الأسباب نرى بأن احترام المؤسسات ، والأعراف ، وحتى العادات يعمل على تعديل العبقريات التي تُرينا الشخصية في نجاحها الأكمل ، كما لدى مونتيني ، ديكارت ، باسكال ، غوته . ناهيك عن الاختلاف فيما بينهم ، فهم ، على ما يخيل إلي ، يشتركون في أنهم يبذلون من الجهد لتنظيم وضبط الآخرين أقل مما يبذلون لضبط أنفسهم بالذات ؛ وعَبْرَ هذه الالتفاتة ؛ فهم يخضعون لذلك المبدأ العام القائل بأن المواقف المشكوك فيها تزيد من قوة الشهوات . باسكال في هذا الميدان ، من بعد مونتيني ، هو سيد التأمل حين يقول بأن التفوق تعتريه الشكوك ويجب على المرء أن يقاتل في سبيله ، بينما أن عدد الخدم ليس فيه أي مجال للشك . هم يحكمون بأن الطاعة تؤمّن الانضباط الداخلي وأن العصيان يفككه في البداية ، لأن الشهوات آنذاك سرعان ما تحتل ذلك الموضع الذي يُخلي الرفض ُساحته ويتركه شاغراً ؛ وإذا ما أردتم رأيي الشخصي ، فهم يخشون ذلك التخبّط الداخلي أكثر مما يخشون الآخر . وهذا هو الطريق الذي يؤدي بنا إلى قبول الكثير ، بل ربما قبول كل شيء . في نظري ، ما تزال هذه الأفكار ذات طابع نظري . وأثناء عرضي لها ليافعين في سن العشرين ، انبرى أحدهم قائلاً : " نحن أصغر عمراً من أن نفهم هذا " . فيا له من عمر جميل، ويا له من جوابٍ جميل !

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

شؤون إنسانية

الصفحة

دراسات من أجل " الأفكار والأعمار "

الطبعة الأولى / ٢٠٠٥

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

آلان Alain

اسم مستعار للفيلسوف " اميل شارتييه " Emil Chartier (١٨٦٨ - ١٩٥١).

عقلي النزعة، يجمع بين اتجاهين الوضعي والمثالي ويضع العقل مصدراً لكل حياة خلقية، وأداة كافية لتطهير النفس.

ويرى أن واجب الفيلسوف ليس هو الوصول سريعاً إلى النتيجة في كل مشكلة، بل المضي في تحليلها بلا توان. ويتناول أحداث الحياة اليومية الخاصة والعامة، والأمثلة العلمية دقيقة التحليل، فيقيم عليها تأملات فلسفية ممتازة.





سعر النسخة داخل القطر ٩٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ١٩٠ ل.س

٢٠٠٥